حجارة أرضنا
قصص قصيرة

الدكتور أحمد زياد محبك

حجارة أرضنا

قصص قصيرة

مطبعة عكرمة . دمشق

١٩٨٩

٣

العنوان: حجارة أرضنا
النوع: قصص قصيرة
المؤلف: الدكتور أحمد زياد محبك
العنوان: كلية الآداب جامعة حلب
الهاتف الجوال: ٠٠٩٦٣٩٤٤٩٢٨٧٩٢
البريد الرقمي: mohabek@gmail.com
مطبعة عكرمة . دمشق
الطبعة الأولى تشرين الثاني ١٩٨٩
عدد النسخ ٢٠٠٠

لنا باقي الأيّام

الأيدي كلُّها مرفوعة إلى فوق، أيدٍ تحمل أعلام فلسطين، أيدٍ تحمل أغصان زيتون، أيدٍ تحمل صور الشهيد، أيدٍ ترسم بإصبعين إشارة النصر، وفي المقدّمة أيدٍ تحمل إلى فوق نعشاً، فيه جثمانٌ مغطًّى بالعلم الفلسطيني، وفوقه بعض الزهور.

الأرجل تسير بهدوء، الخطوات تتقارب، الغبار يعلو قليلاً، وهو غير كثيف، الحناجر تغصّ، يجف فيها الصوت، ولا تنبس شفةٌ بكلمة، الصدور تتيبّس، تنفطر، تتمزّق، تشرب الهواء، ولا ترسل زفرة، العيون تحفل بالدمع، تتورّم، تحتقن، ولا تذرف دمعة.

هكذا قرّر الرجال، أن تكون مسيرة الدفن هادئة، بطيئة، أن تسير الهوينى، وببطءٍ شديدٍ شديدٍ جدّاً، هكذا قرّر الرجال، أن يظلّ الشهيد فوق الأيدي، طويلاً، طويلاً، ليكون شوكة في عيون الجند.

***

الجند مثل مسامير، بعضهم إلى جانب بعض، التروس الزجاجية أمام وجوههم، والخوذ على رؤوسهم،

وبأيديهم الأسلحة مشرعة، والأصابع على الزّناد، وفي الجعب كمّامات وقنابل ورصاص، ومن حولهم سيارات مصفّحة، ومن ورائهم سيارات للقادة، وفوق، بدأت تلوِّث الجوَّ حوّامة، تصخب وتضجّ، تعلو وتدنو، وتحوم وتدوم، تلف وتدور.

***

بين الجند والرجال، مدى واسع من الفراغ والصمت، من سيفرغ عنده الصبر ؟!

***

. لن نتصدّى لهم، ولن نستفزّهم، سنقتلهم صمتاً.

هكذا قال المختار.

وفي المقدّمة سارت أم الشهيد، تحمل الصورة، وتخنق الدمع.

. هو آخر ما تبقّى لي من بنين وبنات، كلّهم قدّمتهم للوطن، ولكن يبقي لي أنتم، كلُّكم أبنائي.

هكذا قالت للرجال الذين جاؤوا يحملون إليها ابنها جثّة.

وانفجرت عيناها بالدموع، سالت غزيرة، شهقت، التوت شفتها، مسحت الدموع بظاهر يدها، ولكنّها لم تندب ولم تعول ولم تصرخ، اعتذرت قائلة:

ـ سامحوني، أنا أم، ولكن أعدكم، هذه آخر دمعة، لن أبكي بعد الآن.

ووفت بالوعد، سارت في المقدّمة، تحمل الصورة، وتخنق الدمع.

***

واستمرَّ الموكب، واستمرَّ الصمت.

ـ هذا بلدنا، وهذا شعبنا، نحن أحرار، نحزن كما نشاء، ونفرح كما نشاء، نحن لا نحزن ولو مات منا ألفٌ، أمّا هم فإذا مات منهم واحد جُنَّ جنونهم.

ـ لن نهتف، ولن ننادي، حين شيّعنا شهيد أمس بالهتاف أطلقوا علينا الرصاص، هذه المرة لن نهتف.

ـ يبقى صراخنا في قلبنا، نرسله متى نشاء.

***

المدى الواسع من الفراغ والصمت يضيق، خطا رجال الشهيد هادئة بطيئة، آمنة واثقة، الجند متراس من سلاح.

ـ هذا الطريق مغلق، اذهبوا من هناك.

هكذا قال قائد الجند، وتقدّم المختار منه ليقول:

ـ ما هذا الكلام ؟ نحن لا نتظاهر ولا نحارب ولا نقاتل، نحن نحمل شهيداً، لندفنه، سنطوف به البلدة كلَّها، هذه بلدته.

وتتزاحم الأقدام، تتلاصق الأجساد، والشهيد فوق فوق، كلُّ الأيدي تحمله، هو في الأمام.

تأبى إلا أن تكون في الأمام، دائماً أنت في المقدِّمة، حتى في موتك، لا تخف، تقدّم بنا، كلُّنا معك، أنت الشهيد، ونحن الشهداء.

***

وتنطلق قنبلة غاز، تسقط في المقدّمة، عند أقدام الرجال، يهوون عليها بقمصانهم وأرديتهم، يدوسونها بالأقدام، يتقدّمون، يتقدّمون.

***

ـ هم بدؤوا، اضربوهم.

ـ هذا الحجر لك.

ـ هذا الحجر عن ولدي.

ـ اضربوهم.

ـ خذ، سأكسر ترسك الزجاجي.

ـ لن نخاف الرصاص.

ـ اذهبوا إلى الطرف الآخر، اضربوهم من هنا وهناك.

ـ حجارة أرضنا كثيرة، ونحن أكثر.

ـ لن نرجع.

ـ أنتم احملوا الجثّة، ارفعوها إلى فوق، تقدّموا ولا تخافوا.

ـ تقدموا، نحن وراءكم.

ـ ارفعوه إلى فوق، ارفعوه إلى فوق، حتى لا يصيبه الرصاص.

***

كل الرصاص المخزون في الحناجر ينطلق، ينصبُّ حجارة حجارة.

***

ـ خذوا هذا الحجر عن ولدي، وهذا الحجر عن دمعي، وكل عمري.

وتقع في المقدّمة العجوز، وهي تحضن صورة الشهيد، فتصبغها من صدرها الدماء.

***

ويعلو النداء:

ـ يكفي هذا، أصبنا أربعة جنود.

ـ لا، لن نتوقّف.

ـ لا، يكفي، في الصباح قدّمنا الابن، والأم قدّمناها في المساء.

ـ يكفي هذا اليوم، لنا باقي الأيام.

***

الأيدي إلى فوق، ترفع الشهيد مغطًّى بالعلم الفلسطيني، الأيدي إلى فوق، ترسم إشارة النصر.

أبو خالد لا يستلم ابنه إلا جثّة

ـ اذهبوا أنتم، استلموه أنتم بأنفسكم إذا شئتم، أمّا أنا فلن أذهب.

هكذا قال أبو خالد لرجال القرية الذين قعدوا أمامه على الحصير، ثم أخرج من علبِّه علبة التبغ، قدّمها إليهم، يدعوهم واحداً واحداً إلى لفِّ سيكارة، ولكنّهم جميعاً شكروه، ففتح العلبة، وأخرج سيكارة بين أصابعه، وهو يتكلّم:

ـ أنا ليس عندي ولد يؤسر، قدّمت ثلاثة أولاد، كلُّهم استُشهدوا، ما أُسِرَ واحد منهم، لن أذهب لاستلامه، ليس ولدي، اذهبوا أنتم إذا شئتم، فاستلموه.

وقال المختار:

ـ يا أبو خالد، نحن نعرف ولدك، وهو شهم، ولا شكَّ أنه قاوم قبل أن يؤسر، الكثرة كما يقال تغلب الشجاعة، كلُّنا سمعنا أنهم فاجؤوه على الطريق وحده، وهناك مَنْ رأوه وهو يرميهم بالحجر، ولكنَّهم ضربوه بالرصاص.

ويقاطعه أبو خالد:

ـ ولماذا لم يُقتَل ؟!.

ـ ما تزال له بقيَّةٌ من حياة.

وردّ أبو خالد محتدّاً:

ـ حياة ؟ أي حياة ؟! حياةٌ من أجل أن يبوح ويعترف ؟!.

ويدخل أبو عمر، وهو كهلٌ في عمر أبو خالد، فقال:

ـ لا يا أبو خالد، ابنك نعرفه، لا يمكن أن يعترف.

ويردُّ أبو خالد:

ـ وإذن فما معنى عودته من أسرهم ؟! لا يعود من أسرهم حيّاً إلا مَنْ يعترف ويوقِّع عهداً على التعامل معهم.

ويشعل سيكارته، ينفث دخانها، ثم يضيف:

ـ أرجوكم، لا تناقشوني، اذهبوا أنتم استلموه، ثم اقتلوه في الطريق، وأحضروا لي جثّته، عندئذٍ أستلمه.

ثم ينهض.

وينهض الرجال ويخرجون.

***

في حرب ٤٨ نفدت ذخيرتي، ما استسلمت، أخرجت السكّين، وبها قاتلت، اختبأت في حفرة، نمت فيها ليلتين، من غير غطاء ولا طعام، خرج لي حنش من ثغر في الحفرة، غرزت السكين في رأسه، سلخت جلده، وأكلته، ثلاث دوريات مرّت، وما كشفت مكاني، لولا أسلحتهم الآلية

لكنت واجهتهم بالسكين، الرشاش كان يحميهم، في الـ ٦٧ هاجرت نصف القرية، وهاجرت زوجتي، وبقيتُ أنا تحت القصف، لا بيت ولا أرض ولا شجرة، بقيت وحدي، حملت على كتفها أحمد، ووراءها مشى بسّام وخالد، رجعت إلي بعد سنتين، قالت لي:

ـ أنت ما تغيرت يا أبو خالد، كأني ما غبت عنك غير يوم واحد ، أنا ما قلت لها أي شيء، الأولاد كبروا، فرحت بهم، وهي تغيّرت، الذي يبقى في أرضه لا يتغيّر، هكذا قلتُ في نفسي، أنا بقيت في الحفرة ليلتين، وفي فجر اليوم الثالث مرّ ثلاثة من رجالنا، انضممت إليهم، ومع بزوغ الشمس رأينا دورية، أخذت من الرجال ثلاث قنابل يدوية، ومشطاً من الرصاص، وقلت لهم:

ـ أنا وحدي سأهاجم الدورية، أنتم غطُّوا هجومي بالرصاص ، ورجعت إليهم، ولَمّا دخلنا أوّل قرية قدّمت لنا عجوز دجاجات محمّرة، ما أكلت منها ولا لقمة، طلبت منها إبريقاً من الشاي الثقيل، وعلبة تبغ، شربت أربع كاسات من الشاي، ودخّنت خمس لفافات، ثم نمت إلى المساء، واليوم ابني سمير يؤسر ؟ لا، لا أصدّق، أنا ما ربّيته للأسر.

***

ويعلو صوت منادٍ في القرية، وهو يصيح، معلناً عن اقتراب ثلاث سيارات عسكرية، يحذّر الناس، ويطلب من الشباب التوجُّه إلى الحقول.

أبو خالد يملأ مسدّسه، يضع في عبّه ثلاثة أمشاط من الرصاص، يغلق باب الدار، يضع وراءه حجرين كبيرين، ثم يرقى الدرج، صاعداً إلى السطح.

ثلاث سيارات جيب عسكرية تتقدّم على الطريق إلى القرية، القلب الشائخ يضطرب، والأصابع المتغضّنة ترتعش.

يقعد على أرض السطح الترابية، يسند ظهره إلى الجدار، إلى الطريق المؤدِّية إلى القرية، إلى السيارات المتقدِّمة، كأنها سهمٌ يخترق ظهره، ينفذ إلى القلب، الشمس قبالته ترميه بأشعّة وهّاجة، جلد وجهه المتغضِّن تحرقه الشمس، يخرج علبة تبغ، يلف سيكارة، يلف سيكارة أخرى، يلف سيكارة ثالثة، يصفُّ سيكارة إلى جانب سيكارة، والمسدس في حجره، محشوّ، وقد نزع مسمار الأمان، والشمس تحرق جبهته العالية.

السيارات تقف أمام الباب، وأنت تراها من وراء الساتر الترابي، على السطح، ابنك سمير سينزل من السيارة

الثانية، سينزل مطأطئ الرأس، ولكنّه قويّ البنية مثل ثور، سيوف يخطو، وثلاثة من الجنود ذوي الوجوه الصفراء يحيطون به، يحمونه، يسيرون به إلى باب الدار، وأنت تسدِّد فوهة مسدّسك إلى جبهته، السوداء، المطأطئة، تطلق رصاصتك، فتثقب الجبهة السوداء، ويسقط ابنك، وقبل أن يصحو الجند من هول المفاجأة، وقبل أن يحتموا بسياراتهم، تسدد رصاصة أخرى إلى صدر جندي، فيسقط، رصاصة إلى رأس جندي آخر، وينهمر الرصاص عليك، اثنان مقابل واحد لا يكفي، وتقفز إلى جانب آخر من السطح، وتسدد رصاصتك إلى خزان السيارة الأولى، وليكن بعد ذلك ما سوف يكون.

أنا ما ربيته للأسر، كنت قاسياً في تربيته، منذ الخامسة علّمته حمل المسدس، خنجره ما غادر خصره قط، كيف يؤسر وخنجره إلى جانبه ؟! لا أصدق، في العاشرة تعلّم رمي القنبلة اليدوية، أول عملية نفذها مع مجموعته وهو في الثانية عشرة، واليوم وهو في الثامنة عشرة يؤسر ؟!

خالد تلقَّيتُ نظرة عينيه غير المطبقتين، تلقَّيتهما مثل طعنة خنجر، قبلتهما، قبلتهما، ثم أطبقتهما، بهاتين اليدين،

وحملت تراباً من أرض الوطن، وغطّيتها به، ثم قلت للرجال:

. الآن احملوه إلى قبره

وأدرت له ظهري، ثم مشيت.

أحمد لا أعرف أين جثته، ولا كيف كانت نظرته، ولكني على يقين من أنه مغروس في هذه الأرض، مثل شجرة زيتون عتيقة، أحمد ذهب مع مجموعة فدائية، ولم يرجع، أنا على يقين من أنه نفّذ المهمّة، ثم استشهد.

أما هذا، فكيف يؤسر، لا أصدق ؟!

بسّام مات على يديّ هاتين، مات وهو ينزف، الرصاصات ملأت صدره، بعده بأسبوع ماتت أمه، ماتت على فراشها بالحمى، قلت لها قبل أن تموت:

. ليتك كنت مع ابنك، لتموتي مثله ، فأجابت وهي تبتسم: **ـ ولكن لا تنسَ أنّي قدّمت للوطن ثلاثة أبناء** ، فقلت لها: **. نسيتِ الرابع** ، فأجابت: **. هذا أمانة في عنقك، أنت قدّمه للوطن** ، وماتت وهو دون الخامسة، لقد نسيته أمُّه، ولم تقدِّمْه للوطن، أنا الذي سأقدِّمه.

ويسمع صوت سيارات الجيب، وهي تقف أمام داره، فيلتقط مسدّسه، السيكارة بين شفتيه، من وراء الساتر الترابي على السطح، يطلُّ على السيارات الثلاث.

***

محرِّك السيارات الثلاث ما زال يهدر، ينزل من السيارة الثالثة أربعة من الجند، ينزل من السيارة الأولى المختار، وضابط.

المختار يتوجّه إلى باب الدار، أبو خالد لا يتمكّن الآن من رؤية المختار، يسمع صوت طرقٍ على الباب، ثم يعلو نداء المختار:

. يا أبو خالد، نحن جئنا، ومعنا ابنك، اخرج لتوقِّع على كتاب تسلُّمه.

رجال القرية يتقاطرون إلى دار أبو خالد، يراهم من فوق السطح، يقفون قريباً من السيارة الثانية، فيَنْزل أربعةٌ من الجند، أيضاً.

الآن سينْزل سمير.

يلقي أبو خالد السيكارة من بين شفتيه، يدوس السيكارة بقدمه، يسحقها، يتأكد من أنّ الرصاصة في موضع الإطلاق، يتأكّد من رفع مسمار الأمان، يسدّد إلى باب

السيارة، ما إن تطأ قدما سمير الأرض حتى يضغط على الزناد، الإصبع الراعشة على الزناد، والنفس منقطع.

الجنود الأربعة يتّجهون إلى الباب الخلفي للسيارة، والمختار ما يزال ينادي، والجنود الآخرون يشرعون أسلحتهم، ورجال القرية يتقدّمون من باب السيارة الخلفي، يتطلعون مدهوشين.

وتظهر من وراء السيارة الثانية نقّالة، يجملها جنديّان من أمام، وجنديّان من وراء، النقّالة تحت أنظاره، يقترب بها الجند إلى الدار.

هل هذا هو سمير ؟!

العين معصوبة، وهو كما يبدو لا يحسُّ ولا يعي، والساق ملفوفة بضماد، وهي متورِّمة جدّاً.

***

أبو خالد يدسُّ المسدّس في عبّه، إلى جانب علبة التبغ، ويهبط، يحمل الحجرين من وراء الباب، يفتحه، وإذا سمير على الأرض، أمام درجات الباب، ملقًى فوق التراب، وأربعة من الجنود يقفون عند رأسه، في سلاح الميدان، أصابعهم على الزناد.

يُكِبُّ عليه، يفتح جفنيه، ينظر في حدقته، يقبِّله، ثم ينهض.

يتّجه إلى الضابط، يبادره بالقول:

ـ نعم، هو ابني سمير، وأنا أستلمه، ما دام على هذه الحالة فأنا أستلمه.

ويتقدّم منه الضابط، وبيده ورقة وقلم، يقول له:

ـ ولكن، وقِّعْ هنا.

ـ وماذا في هذه الورقة ؟ اقرأها لي.

ويقرأ الضابط:

ـ أنا مصطفى الحمّود، المعروف بأبو خالد، أتسلَّم ابني سمير الحمّود، وهو في حالة جيِّدة، وأضمن إحضاره إلى المحكمة بعد شهر، لمحاكمته بتهمة طعن ثلاثة جنود، متحمِّلاً المسؤولية عن أي تأخير، وعليه أوقِّع.

وقبل أن يرفع الضابط عينيه عن الورقة يبادره أبو خالد بالقول:

ـ هات، هات، سأوقِّع على ألف ورقة، لا ورقة واحدة، هو بالنسبة إليَّ في حالة جيِّدة، نعم، في حالة جيِّدة، بل جيِّدة جدّاً، هات.

ويتناول منه الورقة والقلم، يبلُّ إبهامه بريشة القلم، يبصم على الورقة، ويردّها إلى الضابط.

ثم يولِّيه ظهره، ويمضي إلى ابنه.

وأمام سمير يقعد، يقبِّله ويقول له:

ـ سامحني يا بني، أسأتُ الظنّ فيك، ولكن لا بأس....

ويرفع رأسه، والدموع تملأ عينه.

ومن حوله يلتفُّ رجال القرية.

حجارة أرضنا

أبـو جميـل يحمـل حصـيراً عتيقـاً وفراشـاً، وأمُّ جميـل تحمـل صـرة ثيابهـا بيـد، وتحضـن بيـدها الأخـرى ابنتهـا الصغيرة، يتقدّمها ماجد، يحمل كتبـه المدرسية، يصـعدون الهضبة، يقفون مطلِّين على بيتهم، وأشجار الزيتون تحيط بهـم، ومـن حـولهم يقـف رجـال القريـة ونسـاؤها وأطفالهـا، يرمقون البيت.

علـى مبعـدة مـن البيـت، وفـي الطريـق المؤدِّيـة إلـى القريـة، تقف مجموعـة من الجنـود الصـهيونيين، إلـى جانـب سيارتين مصفَّحتين، وعدد من مراسلي الصحف، يوجِّهون مصوِّراتهم إلى البيت تارة، وإلى أهل القرية تارة أخرى.

ويخـرج مـن البيـت جنـدي صـهيوني، يخـرج مسـرعاً، يركض، يتعثّر، ينهض، ينضمُّ إلى مجموعة الجند.

تمرُّ هنيهـة صـمت، ينظـر فـي أثنائهـا قائـد المجموعـة إلى الدار في منظار مكبِّر.

ويـدوِّي انفجـار كبيـر، وتعلـو سـحابة دخـان وغبـار وتراب، والدار تتطـاير حجـارة حجـارة، وتزغرد نسـوة القريـة، ويرفع أبو جميل يده، وهو يرسم بإصبعيه إشارة النصر.

ويصيح شابّ:

. إلى الدار هيّا.

يصل الأولاد إلى بقايا الدار المهدومة، يتقدّمهم ماجد، يحملون حجارتها المدمّرة، ويبدؤون في تكسيرها إلى حجارة صغيرة، ويصل الشباب، منحدرين من الهضبة.

وتنطلق نحوهم قنبلة، ترسل وراءها شريط دخان، يتابعها ثلاثة شباب، يسرعون وراءها، وفور سقوطها على الأرض يغطّونها بقمصانهم، ودخّانها المتفشّي يحيط بهم، ويغشاهم.

ويلوِّح هشام بمقلاعه، يصغي إلى دويِّه، يستمدُّ منه قوّة، يحسُّ بذراعه تدور في كتفه، يلوِّح بقوّة أكبر، يدور بالمقلاع ثلاثة أرباع الدورة، يحس عند قدمه وهو يدور قد أصبح مركز الحركة وثقلها، يندفع بجسمه، بكامل جسمه، ثم يطوِّح بالحجر، وكأنه يرسل وراءه الأرض كلَّها وهي تمرُّ من قدمه الثابتة إلى طرق ذراعه عبر جسمه كلِّه وكتفه، ليقذفها إلى مجموعة الجند، وقد رفع كلُّ واحد منهم أمام وجهه ترساً زجاجيّاً.

ويشدُّ أحمد مطّاطة شِعْبه، وقد ثبَّتَ فيها حجراً، يشدُّها بقوَّة، المسافة بينه وبين خوذة الجندي قد قصرت، الخوذة

والحجر المشدود بالمطّاطة على سمت واحد، يمرُّ من بين فرعي الشِّعْب، يشدُّ أكثر، يحسُّ أنه سيرسل من وراء الحجر قلبه، وعندئذ يفلت المطّاطة، وينطلق الحجر.

ويركض عصام على الطريق، نحو السيارتين المصفّحتين، وهو يقود أمامه عجلة دراجة، ويجري في إثره سمير وخالد، الجميع يجرون على الطريق المنحدرة، والمسافة بينهم وبين مجموعة الجند تضيق، ويصبُّ خالدٌ على العجلة الوقود، ويرمي سمير فوقها عود ثقاب، وعصامٌ ما يزال يدفعها، وهو يجري وراءها، يدفعها بعصاً في يده، واللهب المستعر يلفح وجهه، يشويه، وهو يندفع، يوجِّهها بعصاه، يلكزها ذات اليمين، ثم يلكزها ذات الشمال، حتى تستقيم في جريها، وهو وراءها، يودُّ لو يسبقها، حتى إذا بلغ بها حدّاً أدرك أنها لا بدَّ واصلةٌ إلى هدفه، دفعها بعصاه، ثم رجع يجري، وهو يلتفت إلى وراء، ليطمئنَّ إلى جريها باستقامة وثبات نحو مجموعة الجند الصهيونيين.

ويصيح أبو جميل:

. اضربوهم يا أولاد، اضربوهم.

وتصيح أم جميل:

ـ اضربوهم، هذه حجارة أرضنا، مهما كانوا كثيرين فحجارتنا ونحن أكثر.

وتقترب جرّافة، تدفع العجلات المشتعلة، وأكوام الحجارة، تزيحها عن الطريق، ولكنَّ أمّ قاسم تندفع، وهي تحمل حجراً كبيراً، وتدحرجه أمام الجرّافة، تدفعه بكلِّ ما في جسمها المترهّل من قوّة، وسنوات عمرها الستّون كلُّها تندفع وراء الحجر.

ويسرع إليها جندي صهيوني، يدفعها بعقب بندقيّته، فتقع على الأرض، ولكنّها تنهض، وبيدها حجر، تقذف به الجندي، ويهمُّ بضربها ثانية، ولكنَّ أم خليل تقف بينه وبين أم قاسم، وترفع ذراعها في وجهه، وهي تصيح:

ـ قريتنا، وأرضنا، وبيوتنا.

ويصيح أبو جميل:

ـ إلى الحواري وسطوح المنازل، يا أولاد، أسرعوا، نحن سنؤخِّر وصولهم.

ويقف الشيوخ والنساء العجائز في وجه الجند المتقدِّمين إلى مدخل القرية.

ويمرُّ بأم جميل مراسلٌ صحفي، فتقول له راجية، وهي تحمل طفلتها:

. صوِّرْ، صوِّر للعالم كلِّه.

ويوجِّه إليها مصوِّرته، فترع يدها، وهي ترسم بإصبعيها إشارة النصر، ثم تصيح به:

. صوِّر الأولاد هناك، صوِّر الأولاد.

ويخرج من إحدى الحواري ثلاثة جنود، يقودون أحمد أمامهم، أحدهم أمسك بقميصه، والآخر لوى ذراعه إلى وراء، وهي تَنْزف، والثالث أمسك شعره بقبضة يده، وهم يجرُّونه بقسوة.

وتجري أخته في إثره، تصيح:

. اتركوه، اتركوه.

ويعترضهم أبو صالح، وهو شيخ عجوز، فيقول:

. هذا جريح، اتركوه، دمه ينزف.

ويتدخّل محاولاً تخليصه، ولكنّ أحد الجند الثلاثة يدفع أبا صالح في صدره، فيقع على الأرض، ثم ينهض.

ثم يدفع الجند بأحمد إلى داخل السيارة المصفّحة، وهم يلكمونه في بطنه.

وفي داخل القرية يتغلغل الجند، راكضين وراء الشباب الذين اختفَوْا في الأزقّة والحواري، وفي زقاق ضيِّق، يتعثّر

أحد الجند، فيقع، ويلمح في الزاوية أحد الشباب، فيسدّد إليه على الفور بندقيّته، ويطلق النار.

وينطلق ذلك الشاب من الزاوية، يركض إلى داخل القرية، وفي يده حجر، الأرض تحفظ خطواته، تشيلها، وفي يده كان قد شال منها الحجر، والجند وراءه يلهثون، الحجر في قبضته، يلوي عليه أصابعه، الحجر ينبض، يسيل عليه الدم، يشربه، يرتوي به، فيلين، ويحس الشابُّ بحنين عارم إلى الأرض، فينثني نحوها، يميل إليها، يحسُّ في صدرها شوقاً جامحاً إلى ترابها، فيشقُّ قميصه، ثم يهوي على الأرض ويلتصق بها، الأرض تنبض بنبض قلبه، النبض ينداح دوائر دوائر، تموج بها الأرض، تتحرك، ولكنّه يحسُّ في داخل النبض وقع أحذية عسكرية، يلتفت، فيرى الخوذات والبنادق، فيسدِّد الحجر الذي في يده إلى تلك الكائنات، ويقذفها به، يرميها بالحجر المُشْرَب بدمه، فيكتسي الكون كلُّه حمرة دمه.

ويلتفت غياث، فيرى أخاه أمجد يعدو مسرعاً نحو البيت، فيعدو في إثره، يستوقفه، يسأله:

ـ أمجد، ماذا تنوي أن تفعل ؟.

ويرد أمجد بحدّة:

ـ سأحضر السلاح.

ـ لا يا أمجد.

ـ أرجوك، لا تمنعني يا غياث، ما عدت أطيق، الجند يطلقون علينا الرصاص، أجبني: هل يمكن أن نحاربهم بالحجارة ؟!.

ويرد عليه غياث بهدوء:

ـ نعم، يمكن ذلك، وسيثبت التاريخ أنَّ شعباً حارب بالحجارة، وانتصر.

يحدِّق فيه أمجد، تتشنّج عروقه، ثم ينحني نحو الأرض، يلتقط حجراً، ويمضي نحو مدخل القرية.

على كلِّ الطرق المؤدِّية إلى القرية تتحرّك سيارات الجند المصفّحة، وحوّامة عسكرية تحلِّق فوق القرية.

طفلة في الخامسة على سطح المنْزل، ترفع يديها عالياً نحو الحوّامة، بيدٍ تحمل دمية، وبأصابع اليد الأخرى ترسم إشارة النصر، وهي تصيح:

ـ عاشت فلسطين.

كل الجند الذين دخلوا القرية ينسحبون إلى مدخلها، لينضمّوا إلى مجموعة الجند الجديدة الواصلة إلى القرية، يحتلّون مواقعهم وراء السيّارات المصفّحة والجرّافات،

متـدرِّعين بـالتروس الزجاجيّـة، وهـم فـي لبـاس الميـدان الكامل، وأسلحتهم محشوّة.

ويصـل عـدد آخـر مـن مراسـلي الصـحف، بعضـهم ينتقلون بجرأة بين الأطفال والجند، وهم هنا وهناك يسجِّلون بمصوِّراتهم المواقف.

قائد المجموعة يعلن في مكبِّر للصوت:

ـ عـودوا إلـى بيـوتكم، يُمنـع التجـوُّل، عـودوا إلـى بيوتكم.

فـي الطـرف الآخـر يقـذف الأطفـال والشـيوخ والشـباب الحجـارة، يلتقطونهـا مـن الأرض، ويقذفون بهـا الجنـد، وهم فـي قمصـان رقيقـة، وقـد لـفَّ أكثـرهم رؤوسـهم بكوفيّـات لا يظهر من ورائها سوى العيون.

مـدخل القريـة يمتلـئ بالحجـارة والبراميـل المقلوبـة والعجلات المشتعلة، الدخان يعجُّ إلى السماء، والريح تزيد النار ضراماً، وخلال الدخان تتطاير الحجارة وعلب القنابل، ويمرق الرصاص.

ماجـد يرمـي الحجـارة، إلـى جانبـه زميلـه فـي المدرسـة محمّد، يراه، فيقول له:

. هل رأيت دارنا يا محمَّد ؟.

ويردُّ محمَّد:

ـ نعم، رأيتهم عندما فجّروها.

ـ هل تعرف: أخي جميل أطلق في الأسبوع الماضي الصواريخ مع مجموعته على المستعمرة المجاورة، وغطّى انسحاب مجموعته، فاستُشهد، ولذلك فجّروا دارنا.

ـ اليوم سمعت هذا.

ويصمت هنيهة، وهو يرشق الحجر، ثم يضيف:

ـ حقاً نحن دارنا ما فجِّرت، ولكن لا تنسَ أن ثلاثةً من إخوتي استُشهدوا قبل أخيك.

ويردُّ ماجد وهو يرمي الحجر:

ـ وأنا أيضاً سوف أستشهد.

خليل يحمل علم فلسطين على عصا طويلة، ويلوِّح به بكلتا يديه أمام الجند، فيقول له بشّار:

ـ يا خليل، احمل العلم بيد، واقذف الحجر باليد الأخرى.

ويردُّ عليه خالد:

ـ لا، يا بشّار، يكفي التلويح بهذا العلم، لأفقأ به عيون الجند.

وينهمر من حوله الرصاص.

وتقول أم صلاح لجارتها:

ـ كنت أظنُّ نفسي بلغت الخمسين وما عدت أستطيع فعل شيء، ومرّةً قلت لنفسي: فلسطين ضاعت.

وتسأل جارتها:

ـ وكيف رأيت اليوم؟

ـ كل شيء تغيّر، نكسر الحجارة ونناولها الأولاد، ونقف أمام الجند بأنفسنا.

ـ وفلسطين؟!

ـ فلسطين ما ضاعت أبداً، وفي يومٍ قريب سنرى فلسطين مستقلَّة.

وعلى عمود في مدخل القرية، مواجه للجند المتحصِّنين وراء سيّاراتهم المصفّحة، يتسلّق ماجد، وأبو جميل تحت، يناوله العلم الفلسطيني، يقول له:

ـ إلى فوق، إلى فوق يا ماجد، لا تغرسه إلا على رأس العمود.

ويسرع إليه شاب، ويصيح به:

ـ لا يا ماجد، انزل، أنا سأغرس العلم بدلاً منك.

ويقول له أبو جميل:

ـ لا، يا حسين، اتركه، اتركه.

ويرد حسين بحدّة:

. لا يا عم، أنت قدّمت للأرض ابنك وبيتك، يكفي.

ويقرِّر أبو جميل بشكل قاطع:

ـ لا يا حسين، لا تقل هذا، كلُّنا للأرض، هيا يا ماجد، إلى فوق.

ويتسلّق ماجد العمود الكهربائي، يعلو مترين، ثلاثة، وينْزلق، ثم يعيد التسلُّق، وهو متشبِّث بالعلم، وينهمر الرصاص من حوله، ويصيح به أبوه من تحت:

. إلى فوق.

يتسلَّق بقوّة وسرعة، يبلغ السلكّ الكهربائي الأول، يتحاشاه، يمدُّ يده إلى أعلى، وهو يحمل بها العلم الفلسطيني، يريد تثبيته على قمّة العمود، يعلو، والرصاص من حوله ينهمر، ينقطع سلك، يومض بريق حادّ، ينتفض ماجد، ويهوي إلى الأرض، يختلط بالتراب والحجر، والعلم الفلسطيني مركوز فوق، على قمّة العمود.

الأطفال والشباب في مدخل القرية يهجمون وبأيديهم الحجر، يقذفونه ويتقدّمون، يتقدّمون أمتاراً، أمتاراً، وفي مواجهتهم الجند المدجّجون بالسلاح، يرمونهم بالرصاص والقنابل، والأطفال والشباب يقذفون الحجارة، يتراجعون متراً،

يتراجعون مترين، يتفرّقون، يتناثرون، بعضهم يحمل مَنْ سقط من الجرحى، ثم يتجمّعون ثانية، ويضربون، ومن ورائهم الأمهات والأجداد العجائز، يَمُدُّونه بالحجر، يدبُّون على العصيِّ وراء الأحفاد، أحياناً ينكشف العجائز، فيواجهون الجند بعصيِّهم وخطواتهم المتعثِّرة وأصواتهم المتهدِّجة، يغطّون أحفادهم بأجسادهم، ثم يرجع الأطفال والشباب إلى التقدَّم، يرمون الجند بالحجارة، يتقدّمون، يتقدّمون.

مجموعات الجند وراء السيارات المصفّحة والجرّافات، تَمُدُّ فوهات أسلحتها، وتُحْكِمُ إثبات الخوذات على الرؤوس.

مراسلو الصحف وراء مصوِّراتهم، يسجِّلون المواقف.

أبو جميل ينحني على الأرض، يحمل ابنه، يرفعه إلى فوق، وهو ينظر من خلاله إلى العلم الفلسطيني ويراه سابحاً معه فوق، في الهواء والنور. تدخل أمُّ جميل وهي تزغرد، تلتقط حجراً من الموضع الذي سقط فيه ابنها، تحمله عالياً، تتّجه به نحو الجند، تهجم عليه، ترميهم به، وهي ما تزال تزغرد، وفي إثرها تنهمر سيول الحجارة.

في داخل سيارة عسكرية

الجنرال ديفيد في سيارة جيب عسكرية، يرى بالمنظار المكبِّر الأطفال والشباب والنساء والشيوخ وهم يقذفون الحجارة ويلوِّحون بالأعلام ويرفعون إشارات النصر هاتفين:

. عاشت فلسطين.

يراهم من وراء ساتر من اللهب المستعر في العجلات المشتعلة، والدخان الأسود المتأجِّج إلى السماء، فتبدو أشكالهم شخوصاً عملاقةً متماوجة مزعجة.

السيارة مكشوفة، ولكنّها محميّة بشبكة حديدية متينة، وبألواح زجاجية لا يخترقها الرصاص، ومن حولها ثمانية جنود في سلاح الميدان الكامل، مخصّصين لحمايتها.

وثمّة ثلاث سيارات أخرى تتحرك، والجنود من حولها، يحتمون بها، ليرموا الشباب والأطفال والشيوخ والنساء بالقنابل الغازية والرصاص المطاطي.

الجنرال ديفيد يراقب الموقف، وإلى جانبه مساعده الضابط إبراهام، يوجِّه أوامره إلى الجند مباشرة، وهو على اتصال مستمر بالمستر روجر، الذي يحلِّق الحوّامة فوق

القرية، وهو خبير مختصٌّ في قمع الشغب، وصل مساء أمس من الولايات المتّحدة.

لم يتوجّه الجنرال ديفيد بنفسه إلى القرية ليقود عملية القمع فقط، وإنّما ليدرس الحالة من كثب، وليشترك مع المستر روجر في وضع المقترحات الخاصّة بقمع الانتفاضة، ورفعها إلى الجهات العليا، وهو ما يفتأ بين الحين والآخر يخرج من جيبه دفتراً صغيراً، يسجِّل فيه بعض الملاحظات.

أحد مراسلي الصحف يقترب من السيارة، ويوجِّه مصوِّرته إلى الجنرال، فيدير وجهه، ويشير إلى الجند، يأمرهم بإبعاده.

ستّة من الجند يقودون أربعة شباب، معصوبي الأعين، مكبّلي الأيدي إلى وراء، يدفعونهم بأعقاب بنادقهم، وأحد الجند يلكم شابّاً تعثَّر في مشيته، ويتلقّاهم جنود آخرون، يدفعونهم إلى إحدى السيارات، وتمضي بهم مسرعة.

وتصل أربعة سيارات مصفّحة، يهبط منها الجنود، ويأخذون مواقعهم وراءها، يتحصّنون بها، ويوجِّهون بنادقهم

إلى الطرق الآخر، حيث الأطفال والشباب والنساء والشيوخ يرمون الحجارة.

وتصل جرافة، تبدأ في اقتلاع أشجار الزيتون من الحقل الواقع على يمين الطريق المؤدِّية إلى القرية.

الجنرال يأمر مساعده بطلب جرّافة أخرى، لتقلع أشجار الزيتون من الحقل في الطرف الآخر من الطريق.

الأطفال والشباب والنساء والشيوخ يقذفون الحجارة، ويدحرجون العجلات نحو الجند المتحصِّنين وراء سياراتهم، القنابل الغازية تنطلق ناشرة دخانها، والشباب يلاحقونها، يحاولون تغطيتها بقمصانهم المبلَّلة.

الحوّامة تحطُّ قريباً من سيارة الجنرال، وينزل منها الخبير الأمريكي، ويسرع إليه الجنرال بنفسه، ينزل من سيارته، ويصافحه بقوّة، ثم يتّجهان إلى السيارة، وقبل أن يصلاها يحيط بهم الصحفيون، يحاول الجند منعهم، ولكنّ الخبير يقف أمام باب السيارة ليتلقّى أسئلتهم، يميل عليه الجنرال، ويهمس، ولكنَّ صوته يضيع في غمار أسئلة الصحفيين.

ويبدأ الخبير الكلام:

ـ ما رأيته هنا حالة خاصّة، ليست شغباً ولا إرهاباً على الإطلاق، قرية عادية، بيوت مكشوفة، ولا سلاح ولا أنفاق ولا سراديب، ناس عاديون جداً، عجائز أمام أبواب الدور لتكسير الحجارة، وشيوخ مسنّون يلوّحون بالعصي والأعلام، وأطفال يرسمون إشارات النصر، وشباب يقذفون الحجارة، ليسوا إرهابيين ولا مشاغبين، هم شعب.

ويتدخّل الجنرال:

ـ سيادة الخبير، الحجارة تنقذف نحونا، ونحن لا نستطيع ضمان حمايتك خارج السيارة، تفضّل إلى الداخل.

ثم يشير إلى الجند، فيبدأ هؤلاء بإبعاد الصحفيين، ويدخل الخبير سيارة الجنرال، فيحييه مساعده، وما إن يقعد حتى يبادر الجنرال إلى القول:

ـ سيادة الخبير، هؤلاء ليسوا شعباً، هم مواطنون، رعايا، أقلية.

ويرد الخبير:

ـ سمِّهم ما شئت، فهم يتظاهرون معبِّرين عن احتجاجهم على احتلال أرضهم، كما يفعل كلُّ شعب تُحتَلُّ أرضه.

ويقاطعه الجنرال:

ـ لن نبحث الآن في مثل هذه القضايا، أريد أن تقدِّم لي مقترحات عملية نطبِّقها مباشرة لقمعهم.

ويخرج من جيبه دفتراً صغيراً، يسجِّل فيه، على عادته، هذه الملاحظة:

ـ لن نستقبل بعد اليوم أي خبير غير يهودي، وفي الحالات الخاصة يجب إخضاعه لبرنامج ثقافي محدّد.

ثم يلتفت إلى الخبير، ليقول له:

ـ حاولنا من قبل، سيادةَ الخبير، إرسال جنود على ظهور الخيل، فنفرت الخيول من الأصوات والحجارة، ووقع الجند وكُسرت أذرع بعضهم.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف، وهو يصطنع الابتسام:

ـ هكذا اقترح علينا أحد الخبراء، ادّعى أنه يجب مواجهة وسائلهم البدائية بوسائل بداية مماثلة.

ويردُّ الخبير:

ـ لا أقترح سوى القنابل المسيلة للدموع.

ويردُّ الجنرال:

ـ ولكنَّ الأموال التي أنفقناها ثمناً للكمّامات وقنابل الغاز في الأشهر الماضية كانت كافيةً لحرب إبادة خاطفة.

ويصل أحد الجند، يقدِّم التحيّة للجنرال، ثم يستأذنه في تقديم تقرير خطير، فيأذن له، فيتكلَّم:

ـ سيادة الجنرال، تطوُّر خطير، خمسةٌ من الجند يلقون القبض على شاب، ويقوم جنديّان بكسر ذراعيه على صخرة، عمداً بأعقاب البنادق، أحد الجند يعترض على ذلك، فيضربه زميله، فيلقي ذلك الجندي سلاحه ودرعه وخوذته، ويشتم الجيش العبري، ثم يهرب.

ويسأل الخير مدهوشاً:

ـ لم هذا الحقد عند جنودكم ؟!.

ويشير الجنرال إلى الجندي بالانصراف، ثم يلتفت إلى الخبير ليقول له:

ـ لا، هذا تصرُّف شخصي، وفردي.

ويضيف الخبير:

ـ ولكنّني سمعت أمس، وفور وصولي، نبأً عن جندي دفن أربعة شباب وهم أحياء، كما سمعت عن انطلاق المستوطنين بسياراتهم المسرعة ومحاولتهم صدم العرب، ولو كانوا من الأطفال.

ويردُّ الجنرال:

ـ هذه مبالغات، لا تصدِّقها.

وتصيب قطعة حجر شِباك السيّارة، فترتدُّ، وتسقط، ويلتفت الخبير مدهوشاً، فيرى الجنرال الفرصةَ مواتيةً ليقول:

ـ هل رأيت خطورة السلاح الذي بأيديهم ؟ إنهم يضربون بالمقاليع.

ويلتفت إلى مساعده الضابط إبراهام، ليقول له:

ـ وجِّه الأمر إلى الجند لاستخدام الرصاص المطاطي.

ويعود الخبير ليسأله في حزم:

ـ أرجو أن تقدِّم لنا مقترحات عملية لنقوم بتنفيذها على الفور، فقد نزلنا جميعنا إلى الميدان، ونحن على وشك أن نصاب بالحجارة.

ويردُّ الخبير:

ـ أرى أن تسحب قوّاتك كلَّها، وتبتعد عن القرية، وتترك أهلها ليزرعوا أرضهم، ويعيشوا بسلام، لأنهم...

ويقاطعه الجنرال:

ـ شكراً، سيادة الخبير، يبدو لي أنّ جلوسنا إلى موائد الاجتماعات، ووضعنا الخطط العملية على الورق، أفضل من تقديم مقترحات مرتجلة، سنرجع إلى مقرّ القيادة.

ثم يلتفت إلى مساعده الضابط إبراهام، ليأمره:

. ابقَ هنا، لتقود العملية، اضرب حصاراً مشدّداً على القرية، وافرض عليها منع التجوُّل، واطلب من أهلها لزوم بيوتهم، واستمرَّ في قلع أشجار الزيتون، ولا تتردّد في استخدام الرصاص الحي.

ثم يأمر السائق بالتوجُّه إلى الحوّامة.

ومن الجو يرى الخبير جرّافتين عسكريّتين تقتلعان أشجار الزيتون، فيلتفت إلى الجنرال يسأله:

. لِماذا تقتلعون أشجار الزيتون ؟ ماذا تنوون غرسه بدلاً منها ؟.

ويرد عليه الجنرال باقتضاب:

. سأوِّضح لك فيما بعد.

بعد ثلاثة أيام من الإقامة في مقر الأركان العسكرية، وعقد سلسلة متّصلة من اللقاءات مع الضبّاط والمستشارين والمسؤولين، يقدِّم الخبير روجر اقتراحاً بضرب الشباب أمام أهلهم، ورفع عدد المعتقلين، وتفجير البيوت، وقطع وسائل الاتصال الخارجي، ومنع وصول مراسلي الصحف، واستخدام الرصاص الحي، إذ يَعُدُّ المقلاع واحداً من أسلحة الميدان الفعّالة.

***

وبعد يومين من عودة الخبير روجر إلى الولايات المتحدة، يقدِّم اقتراحاً آخر بدسّ الجواسيس بين الفلسطينيين، وتوزيع منشورات باسم الانتفاضة ولكنّها مزيّفة ومتناقضة، لإحداث البلبلة، وتفجير بعض الحوادث الجزئية البسيطة في أي بقعة من العالم، والمبالغة في تركيز الإعلام عليها للتغطية على أنباء الانتفاضة.

***

وفي بقاع كثيرة من فلسطين المحتلّة الحجارة مستمرة في الانهمار على السيارات العسكرية، وعلى الجنود المدجّجين بسلاحهم الميداني الكامل.

فتاة من واشنطن

نهض فور سقوطه على الأرض، نفض التراب عن ركبتيه، لفّ الكوفيّة حول خصره، ثم ارتدى سترة جلدية كان يحملها في يده، أحكم إغلاقها فوق الكوفية، تلفّت حوله، رأى حنفيّة، اقترب منها، غسل يديه من أثر الحجر، مسح وجهه، ثم سار بهدوء.

الطرف الغربي يطلُّ على الحيّ اليهودي، سار باتجاه الطرف الشرقي، هو يعلم أنّ للحديقة ثلاثة أبواب، تجنّب السير نحو وسط الحديقة، لمح هناك بعض العجائز، ربّما كانوا من اليهود، الظل رطب، أحسّ بقشعريرة، التفت، وإذا ثلاثة جنود يدخلون، أسلحتهم مشدودة إلى جانبهم، أعينهم تدور.

تابع سيره إلى أمام، أحسّ أن الجند في إثره، سترته الجلدية السوداء لافتة للنظر، ولكنّه ما كان يرتديها حين ركض والرصاص ينهمر، كان يحملها على يده، ورأسه ملفوف بالكوفية، ربّما لمحوا السترة على يده، حافظ على ثبات خطواته، شدّ السترة بقوة، تلمّس أطرافها، تأكّد من أنّ الكوفية لا تظهر من تحتها.

أمامه على مقعد قريب صبيّة، بين يديها كتاب، هل رأته يقفز فوق سور الحديقة؟ هل هي يهودية؟ عيناها الخضراوان تزوعان، تنتقلان منه إلى هدف ما وراءه، ثم تعودان إليه، ليس بينها وبينه سوى بضع خطوات، يحس وقع الأحذية العسكرية في إثره، لهاث صدورهم المسعورة في ظهره، خطواته ثابتة، الحديقة مكشوفة، وليس فيها شجيرات صغيرة، كل أشجارها عالية.

الصبيّة تردُّ شعرها الأصفر إلى وراء، تضع الكتاب إلى جانبها على المقعد، وتنهض، وإذا يداها تطوِّقان عنقه، وصدرها الناعم يضغط على صدره، ورأسها ملقًى على كتفه.

بصورة عفوية يشدُّ يديه على خصرها، يطوِّقها، وهي تهمس:

. لا تخف، أنا أحميك منهم.

ثم تخاطب أحد الجند ووجهها إليهم:

. عزرا، هل تريد مساعدة ؟.

ويسمع صوت أحدهم، وهو يجيبها:

ـ شكراً يا ليز، تلقّيت أمراً بتفتيش الحديقة، كنّا نتعقّب المشاغبين.

ليز تضيف:

. اطمئن يا عزرا، إذا رأيتُ أحدهم فسوف أتصرّف.

الجند يمرّون بهما، أحدهم يقول:

. شكراً يا ليز.

يرى ظهورهم، وهم يمضون مسرعين.

يرخي يديه عن خصرها، وهي ما تزال تطوقه، وصدرها يعلو ويهبط، يحدِّق في عينيها الخضراوين، وشعرها الأصفر.

وهو يطوِّقها أحسّ بوجود مسدّس على جنبها الأيسر، لماذا أنقذته ؟! لا شكّ أنّها مجنّدة في الجيش العبري، لعلّها من الموساد، لقد عرضت مساعدتها على الجند، ووعدت أن تتصرف، إذا رأت أحداً، هي تعرفهم من غير شك، أو تعرف أحدهم على الأقل، وهم واثقون بها، ولكن لماذا أنقذته ؟!

ما تزال تطوّقه، وأمام عينيه صدرها الأبيض، والقميص مفتوح عن ثديين صغيرين ناعمين، يدهش لدقة ملامحها، وضآلة جسمها.

يبعد ذراعيها بلطف عن عنقه، ثم يهمس:

. شكراً لك، أنت أنقذتني.

تدعوه إلى الجلوس معها على المقعد، وهي تمسك يده، فيجلس، يقول لها:

ـ واضح أنك لست عربية.

ـ نعم.

تردُّ شعرها الأصفر إلى وراء، ثم تضيف، وهي تبتسم:

ـ أنا ليز فاولر، يهودية من واشنطن، هاجرت إلى الدولة العبرية منذ خمس سنوات، وتعلّمت العبرية والعربية.

يسحب يده بلطف من يدها، عيناه تنتقلان من الكتاب المغلق الذي بجانبها على المقعد، إلى ثدييها الصغيرين الناعمين، ومن ورائها الحديقة عالية الأشجار، مكشوفة ن وثمة عجائز يستسلمون لشمس الخريف الدافئة.

الجنود الثلاثة يمضون مسرعين في الطرف الآخر من ممرات الحديقة، يجوبون باحثين، ووقع أحذيتهم العسكرية ما يزال في سمعه.

يسألها بقلق:

ـ لماذا أنقذتني ؟.

تردُّ شعرها إلى وراء، ترميه بنظرة من عينيها الخضراوين، ثم تقول:

ـ من اللباقة أن تقدِّم نفسك قبل أن تسألني مثل هذا السؤال.

يجيبها وهو يبتعد عنها قليلاً:

ـ واضح أنني فلسطيني، عرفتني أنتِ فور رؤيتي.

ـ نعم عرفتك، رأيتك وأنت تقفز فوق سور الحديقة، وتخفي الكوفية تحت سترتك.

ـ إذن، لماذا أنقذتني؟

تبتسم، وتداعب يده:

ـ أنت لم تقدّم لي نفسك بعد!

يسحب يده من يدها مرة أخرى، يتردّد، ثم يجيبها:

ـ فلسطيني، مصطفى، أنا مصطفى القاسم، ولدت هنا، أنا طالب في المرحلة الثانوية، ولكن أريد أن أعرف لماذا أنقذتني ؟!.

ترسل عينيها الخضراوين إلى الممر، حيث عانقته، ثم تتكلم:

ـ رأيتك تسير بثبات أمام الجند، لم أصدِّق، شعرت كأنني أمام مشهد سينمائي، فقلت لنفسي: لا بد لي من دور متميِّز.

وتصمت هنيهة، ثم تضيف:

. آه، كان يجب أن أخبرك أنني درست فن التمثيل في واشنطن، وقمت بأدوار ثانوية في أفلام كثيرة.

يصمت، يطرق قليلاً، ينقل عينيه من الكتاب المغلق الذي لا عنوان له، ولا كلمة على غلافه، إلى صدرها الأبيض، الأبيض جداً، المفتوح عن ثديين صغيرين ناعمين.

يهم بالنهوض، فتضع يدها على كتفه، وتسأل:

. إلى أين ؟!.

ينظر إليها، ثم يجيبها، وهو يصطنع الابتسام:

. أنتِ أدّيتِ الدور بصورة مدهشة، وأنا أكرر شكري لك، ولكن المشهد انتهى، وعليَّ أن أذهب.

وينهض، فتنهض، تحمل الكتاب المغلق، تشدُّه إلى صدرها، ثم تسير إلى جانبه، يسران معاً، في صمت.

الأشجار فوقهما تمتدُّ عالياً، من غير أن تتلاقى أغصانها، ترميهما بظلال رطبة، وأمامهما تتناثر أوراق صفراء ميتة، تغطّي إسفلت الممر الضيّق، والخضرة في المروج كابية، وليس ثمة زهرة متفتّحة.

وتهبُّ نسمة خريفية باردة، فتلتفت إليه، وتسأله:

ـ أنت شابّ، فلماذا تعرّض نفسك للموت ؟! أنا لا أعرف لماذا تغادر المدرسة؟ كما لا أعرف كيف تصلك الأوامر ؟!.

يقف، يحدِّق فيها، ثم يقول لها:

ـ إذا كنتِ أنقذتني من أجل استدراجي لإجابات معيّنة، فأنت مخطئة، لقد عرفتِ اسمي، وهذا يكفي.

ويهمُّ بالمضيّ، ولكنّها تضع يدها على كتفه، تستوقفه، وتقول:

ـ انتظر، هل تظن أني سأسمح لك أن تذهب، هكذا ببساطة ؟!.

يرفع يدها عن كتفه، ثم يقول لها:

ـ إذا شئت نادي الجند، فهم هناك، أو خذيني إليهم.

ويمشي، فتمشي إلى جانبه، وهي تقول:

ـ لا يا مصطفى، أنت أسأت فهمي، أنا أنقذتك من أجل أن نتحاور، هل ترفض الحوار ؟!.

ـ حول ماذا ؟!.

ـ ألا يمكن أن نعيش معاً ؟!.

يضحك، ثم يسأل:

ـ وكيف ؟ رجلاً وامرأة ؟!.

ـ نعم، رجلاً وامرأة، فلسطينيين وعبريين، في دولة المساواة والسلام، هذا أفضل من أن نعيش في عداء مستمر.

يقف، ينظر إليها، يحس بها صغيرة، صغيرة جداً، جسمها ضئيل ناحل، وإن كان عمرها فوق الخامسة والعشرين، يرى شعره الأصفر، عينيها الخضراوين، صدرها الأبيض، ثدييها الصغيرين الناعمين.

ينظر إلى الكتاب المغلق بين يديها، ثم يقول:

ـ لا يمكن.

تلتفت إليه، تقف، تنظر إليه نظرة طويلة، وهي تحتضن الكتاب إلى صدرها، ثم تسأله:

ـ ألا يمكن العيش معي، أنا بالذات!

ـ معك أنت ممكن، ولكن بشرط.

ـ وما هو ؟!.

ـ في دولة فلسطين المستقلّة.

تردَّ عينيها عنه، تمشي، وهي تسأل:

ـ وهل تظنُّ أنك ستقيم دولة مستقلة اسمها فلسطين ؟!

ويجيبها ببساطة:

ـ أنا لن أقيم دولة، ولكن شعبي، شعبي هو الذي سيقيم دولة فلسطين.

ويحس وقع الأحذية وراءه، يصمت.

الأشجار العالية تمتد أمامه، من خلال جذوعها ينظر إلى الطرف الشرقي، يرى البيوت العربية البسيطة المتواضعة، تترامى وراء السياج والسور الحجري للحديقة.

هي إلى جانبه، يحس بقربها وصمتها.

يمرُّ بهما الجند، أحدهم يلتفت إليها، يحييها بإشارة من يده، فترد عليه التحية بإشارة من يدها أيضاً.

يملأ صدره بهواء الخريف، ثم يرسل زفرة.

الجندي نفسه يلتفت إليها ثانية، يقف، ينظر في ساعة يده، ثم يخاطبها:

ـ الساعة الآن الرابعة والثلث، أرجوك يا ليزا ارفعي تقريراً عن تفتيشنا الحديقة، أكّدي وجودك فيها مع صديقك، تقريرك يفيدنا عند القائد.

ويمضي مهرولاً، ولكنه ما يلبث أن يقف، يلتفت ليسألها ثانية:

ـ هل صديقك عربي ؟!.

ـ لا، اطمئن، حتى الآن لم أتّخذ لي أي صديق عربي.

ويسقط الكتاب من يدها، مصطفى يسبقها إليه، يلتقطه، يفتح الغلاف، يلقي نظرة على الصفحة الأولى، وهو يحاول أن يواري وجهه عن الجندي.

ليزا تمدُّ يدها، تسترد الكتاب من مصطفى.

كلٌّ منهما يقف قبالة الآخر، يتبادلان نظرات حائرة، تمرُّ هنيهة صمت، صدر ليز يعلو ويهبط.

مصطفى يتكلّم:

ـ ليز، الحوار لا يمكن أن يستمر، الآن يجب أن أذهب.

تسأله بحدّة، وهي تشدُّ الكتاب إلى صدرها:

. ما زلت تصرُّ على رفض العيش بسلام.

. لا يمكن، لا يمكن.

ويصمت هنيهة، ثم يضيف:

ـ فقط اذكري المسدس الذي إلى جانبك، ثم اسألي نفسك ما معنى السلام.

تطرق، ترفع رأسها إليه، وتتكلم:

ـ مصطفى، انس كل شيء، اذكر فقط أني فتاة من واشنطن، ألا يمكن أن نكون أنا وأنت صديقين ؟!.

بصورة عفوية يفتح سترته، يفكّ الكوفية عن خصره، وهو يقول:

ـ ولكنّك في الجيش العبري، وربما كنت من الموساد، والتلمود بين يديك.

تمدُّ يدها إلى جنبها الأيسر، وهي تصيح به:

ـ وغد، مجنون، ترفض الحضارة، أنت متوحّش، بدائي، أنت أسوأ من السود هناك، أنت إرهابي.

يلف الكوفية على رأسه، وهو يردُّ بهدوء:

ـ لا، أنا فلسطيني، فلسطيني.

ويعدو راكضاً نحو الطرف الشرقي من الحديقة، يتسلّق السور، يمتطي السياج.

ليز تصوّب مسدّسها إليه بيمناها، تسنده إلى يدها اليسرى، وهي تحمل بها الكتاب المغلق، تسدد.

ويدوّي صوت رصاصة، وهو يقفز إلى الشارع.

برودة حادّة، تعقبها حرارة لاهبة، يمدُّ يده إلى كتفه ن يحسُّ فيها سخونة نديّة.

ومـن وراء السـور يرفـع يـده المخضـبة بالـدم، يرسـم بإصبعه إشارة النصر.

وتدوّي رصاصة ثانية.

وعلـى الرصـيف يعـدو مصـطفى، يـدخل فـي شـارع فرعي، ينضمُّ على مجموعة من الشباب والأطفال والشيوخ، يرجمون الجنود بالحجر.

رسالة

عزيزي جان:

هذه رسالتي الثالثة إليك، في غضون شهر واحد، لا أعرف كم أودّ لو أكتب إليك كل يوم، أحس أنّ كل وسائل الإعلام غير كافية، لا شكّ أنك ترى في التلفزيون صورنا، وأظنُّ أنك تحدّق في العيون المتوهّجة من وراء الكوفيّات التي تخفي الوجوه، لعلّك تراني، أو ترى الأصدقاء الذين تعرّفت إليهم هنا، خلال زيارتك لنا في الصيف الماضي، بالأمس كان عندنا مراسل فرنسي، لاحظت أنه كان يوجِّه مصوِّرته إلى وجهي، فنزعت الكوفية، ولوّحت بها، لعلك تراني قريباً في التلفزيون، على كل حال لا يهم، أي شاب أو شيخ أو طفل، فالكل واحد، فلسطينيون.

ما زال الجنود يطلقون علينا الرصاص المطاطي بكثافة، وكل يوم يسقط في قريتنا شهيدان أو ثلاثة أو أربعة، عدا عشرات الجرحى، وقنابل الغاز ما زالت تسقط علينا، بالأمس توفِّي ثلاثة أطفال لتسمُّمهم بالغاز، وأجهضت امرأة في الشهر الرابع، أخي بسّام ما يزال في المستشفى، وهو يصرُّ على الخروج، ولكنَّ الأطباء لا يسمحون له، سأرسل إليك الرصاصة المطاطية التي

استخرجوها من ساقه، كما سأرسل إليك كوفية فلسطينية وعلم فلسطين.

الفكرة التي اقترحتها عليك في الرسالة السابقة ما تزال تلحُّ على خاطري، ويقيني أنك لن تتردد في تنفيذها، إنّ حجارة العالم كلها متشابهة، بل كلها واحدة حين تُرفع في وجه الظلم والاستبداد والاستعمار، لأن الظلم في العالم واحد، وإن اتّخذ أشكالاً وأساليب مختلفة، وما أرجوه منك هو أن تلتقط من شوارع باريس وأحيائها الفقيرة بضعة حجارة، ستكون فكرة مدهشة، ولا أظن أن مدير المتحف الحربي عندكم سيتردد في قبولها، إن افتتاح جناح صغير في المتحف الحربي خاصٍّ بنضال الشعب العربي في فلسطين لن يكلِّف كثيراً، وأنا سأزوِّدك بكل شيء أقدر عليه، سأرسل إليك شِعباً صنعته بنفسي من شجرة زيتون في حقلنا، سأحفر عليه . فلسطين ، كما سأرسل إليك المقلاع الذي كان يستخدمه أخي، لن أحدثك عن المقلاع، ستعرفه حين تراه.

الحجر هو تاريخ العالم، إنّ حجراً تلتقطه من شوارع باريس لتضعه باسم فلسطين في المتحف الحربي ربما كان قد استُخدم من قبلُ في رجم الباستيل أو اتُّخذ متراساً لصدِّ

القوى النازيّة، ولعله ارتمى بدماء شهيد سقط وهو يدافع من أجل حرية الوطن، إنَّ لدينا شاعراً قديماً، هو أبو العلاء المعرّي، كان قد قال:

خفف الوطء ما أظن أديم
الأرض إلا من هذه الأجسادِ

وإذا كنا ونحن في القرن العشرين نتصدّى بالحجر لعدوٍّ يستعمر أرضنا، فليس هذا عائداً إلى أننا بدائيون ومتوحشون، لا، نحن أصحاب الأرض، ونحن أصحاب الحق، وأنت زرتنا وأقمت بيننا أسبوعاً كاملاً، ورأيت أخلاقنا وعاداتنا وطباعنا، إنّ عدوّنا هو الذي فرض علينا ذلك الأسلوب في رجمه بالحجارة، لأنه هو البدائي والمتوحّش في أطماعه وعدوانه ونازيّته، وإن كان يملك أحدث أنواع الأسلحة.

عزيزي جان:

ستبقى حلوةً تلك الأيام القليلة التي أمضيتها عندنا هنا في الوطن، فقد تعرّفنا فيها إلى صديق ينصر الحق والخير والعدل والسلم، ولا أنسى حديثك عن العقبات الكبيرة والصعاب التي وضعتها أمام سلطات العدوُّ قبل أن تسمح

لك بزيارة قريتنا، والإقامة عندنا، كما لا أنسى الرسالة التي حدّثتني فيها عن إجراءات التفتيش التي تعرّضتَ لها في المطار قبل مغادرتك إلى فرنة، والتحقيق الطويل الذي أجري معك، لا لشيء، إلا لأنك أقمت بين الفلسطينيين أسبوعاً واحداً فقط، تعرفت في أثنائه على الشعب الفلسطيني.

لقد بدأت منذ يومين في ترجمة نصِّ محاضراتك، وأنا أكرر شكري لك لإرسال ذلك النص، وشكري لإذنك لي بترجمته إلى العربية، لقد كنت في نص المحاضرة منصفاً لقضيّتنا، ومتفهِّماً لها، وكم أتمنّى لو كنتُ حاضراً في النادي الذي ألقيت فيه تلك المحاضرة، لأستمع إليك، وأنت تتكلّم على قضية فلسطين، والفلسطينيين، بوصفهم شعباً، أصحاب حقٍّ في إقامة دولتهم المستقلة على أرض وطنهم، فلسطين، ولقد قرأت على طلابي في الصف الثالث الثانوي نصّ محاضرتك بالفرنسية، فأعجبوا به جدّاً، وسوف أسعى إلى نشر ترجمتي العربية للنص في المجلات العربية داخل الوطن وخارجه، إنَّ محاضرتك لا تقلُّ في تأثيرها عن الحجارة التي نرجم بها العدو، وأنا أشكر لك جهدك باسم شعبنا كله.

عزيزي جان:

أرجو المعذرة لطول الرسالة، ففي كلِّ مرة أكتب إليك أحس أنها رسالتي الأخيرة، لأنني بعد إيداعها في البريد، أتوجّه مع رفاقي لرجم العدوِّ بالحجارة، وأتوقّع أن أصاب دائماً برصاصة قاتلة، ولذلك أطيل في الكتابة إليك، وأرجو ألا تظنّ أن توقّعي الموت يثير في نفسي الخوف، لا، أنا أتوقف الموت ونفسي راضية كلَّ الرضا، لأني سأموت من أجل وطني.

ومع ذلك، فأتمنى ألا أصاب، لا لشيء، إلا لأستمر في رجم العدو، حتى أرى لي وطناً مستقلاً، وعندئذ ندعوك إلى زيارتنا، ونضع على جواز سفرك اسم بلدنا: . فلسطين، وإذا استُشهدتُ أنا قبل ذلك فإنَّ أصدقاءً كثيرين سيكونون في استقبالك، نيابة عني، وكل ما أرجوه هو أن تكون تلك الزيارة قريبة، وهي من غير شكٍّ، قريبة، فإلى الملتقى.

المخلص

حسن الأحمد

الأطفال... أخيراً

الأجراس الصغيرة ما تزال تجلجل فوق باب المكتبة، من الداخل، وهو أمام رفوف الكتب، ينتظر العجوز الأشيب.

يلتفت، يرمق الأجراس.

وعلى الدرج الحلزوني، تظهر قدما بنيامين، وهو يهبط من الطابق العلوي، وشيئاً فشيئاً يظهر جسمه الناحل، بطنه الضامرة، عنقه المثقوب، المغطّى بقطعة جلد، حاجباه المشعثان، وأخيراً شعره الأبيض المنفوش.

ويبادره بالسؤال:

. وصلتك كتب جديدة؟

ويهز بنيامين رأسه بالنفي.

فيعلِّق في ضجر:

. لم أستفد من كل ما أعطيتني.

يضع بنيامين كفّه على موضع الثقب في حنجرته، ثم ينطق بصوت أجش غائب:

. لو تعلّمت القراءة بالعربية، لأعطيتك عشرات الكتب، وعندئذ تعرف العرب.

. والآن، ما الحل ؟!.

. لا أعرف.

يمشي في الفسحة الضيقة من المكتبة، بين ركام الكتب، يضرب راحة يده اليسرى بقبضة يده اليمنى، يرمق الأجراس الصغيرة، يحس أنها ما تزال تجلجل.

منذ أربعين عاماً وأنا هنا، جئت شابّاً، خضت أربعة حروب، دخلت جنوب لبنان، عشت مع الفلسطينيين واللبنانيين، أو بالأحرى حاربتهم، أُسرت في سورية، تحطّمت طائرتي في الجولان، جُرحت، تعلّمت العربية، رميت أطنان القنابل فوق المدن والقرى والمعسكرات والحقول والجسور...حسبت أني عرفت العرب، ولكنني أحس اليوم...

يقف أمام بنيامين، يحدِّق في حاجبيه الأشعثين، ويسأل بحدّة:

. قل لي يا بنيامين، كيف نكسر رؤوس هؤلاء ؟!

يطرف بنيامين عينيه، يضع كفّه على الثقب في عنقه، ثم يرسل صوته:

. اسمع، عندي فكرة، احملوا في الطائرات حجارة، ثم أسقطوها فوقهم، مثلما يفعلون.

ينظر إليه مدهوشاً، ثم يصيح به:

ـ ماذا قلت ؟! حجارة ؟! نحمل في الميراج أو الفانتوم حجارة ؟! شيء مضحك، أنا ذاهب، ولكن لا تنسَ، أرسل إلى واشنطن، إلى كل العواصم، اطلب كلّ ما عندهم من كتب عن العرب، سأقرأ كلّ شيء عنهم.

يدير ظهره، يفتح الباب، فتجلجل فوقه الأجراس الصغيرة، يقف، يرمقها بغضب، يرجع:

ـ اسمع يا بنيامين، سأتعلم العربية، قراءةً وكتابة، سأقرأ كل كتبهم، هات أعطني كتاباً لتعليم العربية من غير معلِّم.

يتحرك بنيامين قليلاً، يتذكر، يضع كفّه على الثقب في حنجرته:

ـ آخر نسخة بعتها منذ قليل، غداً سأحضر لك نسخة من المستودع.

ـ أيها العجوز.

ـ لا، لا تغضب، مُرَّ بي مساءً.

يوليه ظهره، ويمضي نحو الباب، فيلاحقه صوته الشبحي:

ـ مسيو أهارون.

ويلتفت إليه:

. نعم.

. نسيت أن أعطيك صفحة المساء.

. آه، هاتِها.

ويدبُّ العجوز نحو قسم الصحافة، في عمق المكتبة، يستلّ صحيفة، ويرجع بها، المقدّم أهارون يسأله:

. ما الجديد؟

يكلِّمه وهو ما يزال يدبُّ قادماً نحوه:

. شكوى ضدّ ممرضة.

. والسبب ؟!

. بالغت في إعطاء المخدّر لجريح عربي، فمات.

. وكيف عرفوا ؟!

. أهله شرّحوا الجثة في مستشفى عربي، بحضور مراسلي الصحف.

المقدّم أهارون يتناول الصحيفة من بنيامين، ويصيح بغضب:

. دائماً هناك تقصير، الأوامر لا تُنفَّذ بدقّة، لا تُسلَّم أي جثّة إلا بعد عشرة أيام، وفي صندوق مغلق، مع

التوقيع على تعهُّدٍ بعدم فتحه، لا أعرف، لا أعرف كيف تسير الأمور.

يشد قبضته على الصحيفة، ويتّجه نحو الباب، قبل أن يفتحه، يلتفت إلى بنيامين، ويقول:

. بعد اليوم لا أريد هذه الأجراس، ارفعها، لا تخف، لا أحد سيسرق كتبتك.

وتجلجل الأجراس فوق رأسه، وهو يغادر المكتبة.

***

السيارة تنطلق به، وهو في المقعد الخلفي، يفتح الصحيفة، يبحث فيها عن موضع الخبر.

السائق يسأله:

. إلى المنزل سيّدي، أم إلى المطعم؟

. لا، إلى المنزل.

منذ يومين لم أتناول طعام الغداء مع زوجتي، بل منذ ثلاثة، هي دائماً في المستشفى، وأنا دائماً في القيادة، أقلقوا حياتنا، الحرب نعرفها، ولكنّ هؤلاء الشياطين جعلوا حياتنا كلّها في حرب، آه، هذا هو الجريح، هو أيضاً طفل، ما أكثر أطفالهم، في العاشرة، ولكن يبدو في الصورة دون ذلك، المستشفى نفسه، ولكن لم يذكروا اسمها. هل يُعقل أن

تكون هي نفسها، لا، منذ أسبوع وهي قلقة، مشغولة، هي دائماً تعتقد أن بياض البشرة وشقرة الشعر من صفات اليهود المميزة، وهذا طفل أبيض أشقر الشعر فهل فعلتها؟! لا تهدأ ولا تتعب، خارج أوقات دوامها تطوف على البيوت العربية، تقرع الأبواب، وتوزع حبوب منع الحمل، تدعو إلى تحديد النسل، أتقنت العربية بسرعة، وأنا منها تعلّمتها، دائماً تدعو العربيات إلى زيارتها في المستشفى، قليلات جداً اللواتي زرنها، هذه تلد، وتلك تجهض، والثالثة تضع توأمين، ولكنّها... أنا المذنب، لقد أخطأت، ألحّت عليّ كثيراً، ولكنّها تتحمل المسؤولية، اقترحت عليها الذهاب إلى واشنطن، أخي هناك مدير مستشفى، بل قلت لها: نذهب إلى نيويورك، أو أي مدينة، لا يعرفنا فيها أحد، وهناك نستنبت طفلاً في الأنبوب، يمكننا أن نحمل اسمين غير اسمينا، نبقى سنة، ثم نرجع ومعنا طفل، كانت مصرّة على الذهاب إلى لندن، وتبنّي طفل يهودي، هل فعلت ذلك عمدا ؟! ولكن..

وتقف السيارة أمام المنزل، السائق يفتح الباب، ويقدِّم التحيّة.

***

لا، ليست زوجتي، لا أظن هي، سنتناول طعام الغداء معاً، ثم نذهب إلى النادي، سنسهر في المقصف، ليس لدي اليوم اجتماع في القيادة، سأقدّم طلب إجازة، وسنمضي أسبوعاً في لندن، لا أعرف لماذا تحب لندن، غادرتها في الخامسة عشرة، وهنا توفي والدها ودُفن، قبل موته باع كل أملاكه هناك، سأسهر معها حتى منتصف الليل.

ويفتح باب المنزل، ويدخل.

الصمت دائماً، لا أحد يستقبلني، كرهت حياتي، هي أيضاً عنيدة، لا تحب شيئاً، اقترحتُ عليها شراء كلب، فرفضت، عاشت كل حياتها وحيدة، لا إخوة ولا أخوات، لا تحب شيئاً، لا طائر في قفص، ولا قطة تتمسح بالأقدام، دائماً رائحة اليود والمطهرات، حقيبتها صيدلية متنقلة، أصابعها تنضح بالكحول، أنا نفسي كرهت حياتي.

. راشيل، أين أنت يا راشيل؟

أعرف، لا أحد، وأنا أسوأ منها، لا أعرف كيف تنظر إليّ، الحذاء العسكري دائماً في قدمي، من استنفار إلى استنفار، هؤلاء الشياطين الصغار ؟! أنام والحذاء إلى جانب سريري، لا شك أن تتقزز من رائحة جواربي، ولكن هل يُعقل أنّها هي، هذه صورته، أشقر، سحقاً لهم

ولأولادهم، ليتها كانت توزّع عليهم حبوب العقم الأبدي، ولكن ما هذه الورقة؟ يا للعنة، كيف لم أتنبّه إليها، وهي هنا على المائدة؟

. عزيزي أهارون

حين تتناول غداءك، تكون الطائرة قد حطّت بي في لندن، اعذرني، ما عدت أطيق العيش هنا، لست أنت السبب، لعلك تقرأ صحيفة المساء فتعرف، على كل حال، سأبقى أعمل بإخلاص من أجل أرض الميعاد.

المخلصة

راشيل

***

ويرن جس الهاتف، فيحمل السمّاعة.

. نعم.

. سيادة المقدّم ؟!

. نعم، ما عندك يا صاموئيل.

. سيدي، اجتماع طارئ، عند تمام الساعة الرابعة، لا تنتظر سيارة القيادة، احضر بسيارتك الخاصة.

ويضع السمّاعة من غير أن يردّ بكلمة، ثم ينظر في ساعة يده.

يا للعنة، كل ساعة اجتماع، لم أتناول الغداء، وراشيل في لندن، وأنا لم أغسل قدمي بعد، الانتفاضة، الحجارة، سحقاً لهم، كلهم، ساقدم اقتراحي، ولو سخر مني الجميع، الحجارة نحملها في الحوّامات ونرميها فوق رؤوسهم، بل لن أذهب، ضجرت، ذَهَبَتْ إلى لندن، وسأذهب أنا إلى واشنطن، سأرجع، ولو سرّاً، سأعيش بقية حياتي في مزرعة الأسرة، بل سأبدأ هناك.

ويرمق الرسالة على المائدة، يتفرس فيها، ثم ينحني على حذائه العسكري، يعقد حزامه.

سامحيني، يا راشيل، كتمتُ عنك طول ذلك العمر نتائج التحليل الطبي، لست أنت وحدك العاقر، أنا عقيم أيضاً، سامحيني، أنا سأتابع العمل هنا، اعملي أنت هناك، تبنَّيْ كل أطفال اليهود، ثم عودي بهم، وأنا هنا سوف أثأر لك منهم، لا ليس من الشباب أو الشيوخ، بل من الأطفال، من الأطفال وحدهم.

***

يدخل سيارته وينطلق بها.

يمر بمكتبة بنيامين، باب المكتبة يفتح، ويخرج منها رجل، يحس بالأجراس الصغيرة المعلقة فوق الباب وهي تجلجل.

ينعطف، فتنهمر عليه الحجارة.

حجارة، حجارة، حجارة.

حجارة يقذفها الأطفال.

أعلام صغيرة

شمس الخريف المائلة إلى الزوال تداعب خصلات شعرها الخرنوبي، وهي على مصطبة في فناء الدار، تنعم بدفء الشمس، وبين يديها الصغيرتين غطاء الوسادة الرقيق، تطرز فيه رسماً واحداً متكرراً، وإلى جانبها كرات الخيطان الملوّنة بالأسود والأحمر والأخضر.

وأمامها تتقافز العصافير، تحطُّ على سور الدار الترابي، ثم تنطّ إلى الفناء، تلتقط فتات الخبز من هنا، وتنقر التراب هناك.

. لم تسبقني بنتٌ إلى هذه الفكرة، أنا التي ابتكرتها، غداً ستصبح زيّاً شائعاً في الوطن كلّه، غداً ننام على هذا الغطاء معاً، ستكون الوسادة تحت رأسينا، وحين أنتهي منه، سأطرِّز منديلاً لعماد، منديلاً من الحرير الأبيض.

ويأتيها صوت أمها، وهي تناديها، من المطبخ:

. هيا يا رجاء، تعالي ساعديني، الآن يصل والدك من الحقل، وهو جائع ومتعب.

وتنهض كالفراشة، والغطاء بين يديها، تعدو عبر الفناء، فتتقافز العصافير، ونهداها يتواثبان، تحس

بارتجاجهما، فتزهو، وتضع أصابعها في شعرها، تردُّ خصلاته إلى وراء، وهي تحسُّ بالخاتم الذهبي، حول بنصر يدها اليمنى.

ـ لم أنم، كنت كالعائمة فوق البحر، الخاتم في إصبعي، أحس بوجوده، يا يزال في يدي عبق يديه، وهو يضع الخاتم في إصبعي، ثم يشد بيديه على يدي، طوال الليل، وأنا أتنسّم ذلك العبق، كانت أناملـه حارة، لم ترتعش، رفع وجهي إليه، غمرني وجهه الأسمر، غطّاني كلي، رجل، لا شكّ هكذا تكون يده على الرشّاش، أو على الحجر وهو يقذفه، قوية، ثابتة، هل هو عبق التبغ الذي يدخّنه ؟! أو عبق الأرض التي يحفر بيديه في ترابها، يحتمي به، يدافع عنه، كم أشتهي أن أكون معه، مغروسة في الأرض، مثله، مختبئة في حفرة طوال الليل معه.

ـ مرحباً يا رجاء.

ويظهر وجه أم عويد من وراء باب الدار الخشبي، وترد رجاء بمرح عفوي:

ـ مرحباً يا خالتي، تفضلي.

ـ طارت العصافير يا رجاء، طارت.

وتدهش، تتلفت حولها، ثم تسأل:

. أي عصافير يا خالتي ؟!

وتدفع أم عويد الباب الخشبي وتدخل، وهي تركز عينيها الكابيتين على صدرها الناهد:

. العصافير هنا، في صدرك.

وتطرق رأسها خجلاً، ترد أنظارها عن وجه أم عويد المتغضّن، وهي تدب داخله إلى الدار، بقامتها القصيرة المتهدّمة.

وتطل أم رجاء من باب المطبخ، لترحّب بها، فتقف أم عويد قبالتها، ترفع جذعها المحدودب، تلتقط أنفاسها، ثم تصبح بصوت متهدّج:

. أنا عاتبة عليك يا أم رجاء.

وترد أم رجاء:

. صدقيني، ما دعونا أحداً، ولم نحتفل.

. وهل يجوز هذا ؟!.

. أنت عارفة بالحال، حالنا وحال القرية، وحال الوطن كله.

. والحلوى ؟!.

ـ قلت لك: الحال ظاهر، وأنت أدرى، والآن ما هو وقت الحلوى، كل يوم يقع شهيد أو أكثر.

وتدبُّ بخطواتها نحو المطبخ، تدخل، في إصرار، ثم تغلق وراءها الباب.

رجاء تقف ذاهلة، ثم تعدو إلى المصطبة، تقعد على حافتها، وغطاء الوسادة بين يديها، تحاول متابعة التطريز فيه.

ـ أعرف، علاء هو الذي أرسل أم عويد، أرسلها من قبلُ مرتين، ولكنّ أبي لم يوافق، أبي يعرف أني لا أحب غير عماد، وأمي وأبي كلٌّ منهما يحب عماد، فور تقدُّمه إلى خطبتي تمت الموافقة، لا شكّ أنّ أم عويد تحاول الآن إقناع أمي، ولكن من غير جدوى، أنا أعرف، ولكن لماذا يصرُّ علاء على خطبتي، عماد هو خطيبي، وأمسِ لبست الخاتم، كيف يرسل اليوم أم عويد ؟! ألم يسمع نبأ الخطبة ؟! قبل يومين حاول استيقافي وأنا عائدة من المدرسة، ولكني ما باليت به، وتركته ومشيت، كان يجب أن يعرف.

وتنهض، تلوب بين المصطبة، وباب الدار، تقترب من باب المطبخ المغلق، تدنو منه، تتردد، تدنو أكثر.

ـ عماد يعيش مع أبيه في دار عمه، دمر الجنود الصهاينة دار أبيه، لعلّي تسرّعت في حبه، كيف سأعيش معه في دار عمه؟ مع علاء أستطيع العيش في سعادة، علاء يستطيع شراء كل شيء، الأساور، والعقود الذهبية، دار والده قصر، ولكن...

ويُفتح باب المطبخ، تخرج أم عويد، محنية الظهر، ترفع وجهها إلى رجاء، وتقول لها:

ـ أسفي على شبابك يا رجاء، لا حلوى ولا ضيوف ولا دعوات.

وتدب نحو باب الدار بخطا بطيئة، وهي تغمغم:

ـ إيه، عماد يتزوجها اليوم، وبعده يروح إلى المعتقل.

غطاء الوسادة يسقط من بين يدي رجاء، تتابعها بأنظارها، ذاهلة.

وتنفجر الدموع في عينيها.

***

وعند الباب يظهر أبو رجاء، فتسرع إليه ابنته، وهي تكفكف دموعها.

يضمُّها إليه، يمسح دموعها، يقبِّلها في جبينها، وهو يسألها:

ـ لماذا الدموع يا رجاء ؟!.

وتظهر أم رجاء في باب المطبخ، ترحب بزوجها، فيسألها:

ـ التقيت بأم عويد في الزقاق، عرفت أنها كانت عندنا، لماذا جاءت إلينا ؟!

وترد أم رجاء مطمئنة:

ـ لم تقعد، جاءت لتعتب علي، لأني ما دعوتها.

ـ لا تبالي بها، عقلها ضعيف.

ثم يلتفت إلى رجاء ويسألها:

ـ ماذا قالت لك أم عويد، حتى بكيتِ ؟!.

ـ لم تقل أي شيء، ولكنها ذكرت المعتقل.

يمسح بيده على رأسها، ثم يهمس:

ـ لا، لا يا بنتي، لا تخافي، عماد نفّذ حتى الآن عشرين عملية، وكل يوم يرجمهم بالحجارة، وما أصيب بخدش، عماد مثل والدك، ولكن إياك، لا تقولي لأحد.

ترفع وجهها إليه، تبتسم، تملأ عينيها من عينيه.

ـ الآن عرفت، أبي مثلي، لا يحب غير عماد، والد علاء عنده ألف هكتار، ولكنّه ليس مثل أبي، هو يزور مقر الحاكم العسكري، يتعامل مع الجنود الصهاينة، وابنه

مثله، ما رأيته أبداً يحمل حجراً يرجم به العدو، ولا سمعت أبداً أنه شارك في أي عملية، والعجوز الخرفة تأتي لتحرض أمي، لا، لا، عماد سيدمّر المعتقل، أنا وعماد سندمر المعتقل.

ويأتيها صوت أمها من المطبخ:

. يا رجاء، تعالي احملي هذا الصحن إلى المصطبة، هيئي المائدة.

وتسرع إلى المطبخ، تحمل صحناً، وملاءة، وتمضي بهما، تعبر الفناء، نهداها يتواثبان، تنظر إلى والدها، وتبتسم.

أبو رجاء يتّجه إلى المطبخ، ويقول لزوجته:

. سأحمل بعض الصحون.

وتهمس له زوجته:

. نحن تسرّعنا في الموافقة على خطبة رجاء، البنت ما تزال صغيرة.

ينظر إليها بحدة، ثم يقول بحزم:

. ما هذا الكلام، تكلّمنا من قبلُ على هذا الموضوع، وانتهينا.

. ولكن النفس تتمنى، أنا نفسي أشتهي لبنتي...

ويقاطعها:

. أم عويد أفسدتك، حدثتك بلا شك عن علاء.

وتهم بقول شيء، ولكن رجاء تصل، فتناولها الخبز، وهي تقول لها:

. خذي الخبز يا رجاء.

ثم تلتفت إلى زوجها، وتهمس

. بصراحة، علاء كان يقدر على...

ويقاطعها مرة أخرى:

. ما هذا الكلام ؟! نحن لا نبني بيتي ولا بيت عماد، نحن نبني الوطن ؟؟

ويخرج من المطبخ محتجاً، من غير أن يحمل أي شيء.

وإذا عماد في باب الدار، فيتلقاه بحماسة، ناسياً غضبه.

. أهلاً عماد، أهلاً، تفضل.

وتنهض رجاء، تقفز، تركض عبر الفناء، تطير إلى عماد، وهي تحمل بين يديها غطاء الوسادة، تسأله بلهفة:

. انظر يا عماد، هل تعرف ما هذا ؟!.

وقبل أن يتفوّه بشيء تضيف:

. غطاء لوسادتنا، طرّزته بأعلام فلسطينية صغيرة.

ويجيبها عماد، وهو يحاول الابتسام:

. جميل، جميل جداً يا رجاء، ولكن يجب أن تطرزي واحداً آخر، لوالدك.

ثم يلتفت إلى عمه، يهمس له، وعلى الفور يلتفت أبو رجاء إلى ابنته، ويقول لها:

ـ لا بأس يا رجاء، خبّئي غطاء الوسادة الآن، وتناولي الغداء مع أمك، أنا وعماد سنذهب.

وتخرج الأم من المطبخ مدهوشة، لتسأل بقلق:

. ماذا حصل يا عماد ؟!.

. لا تقلقي، لا شيء.

وتسرع إلى الباب، تقف فيه، تسدُّه بجسمها، وتقول بعناد:

. سنذهب كلنا، أو لن يذهب أحد.

***

في مدخل القرية رجال ونساء وشيوخ وأطفال يرجمون الجنود بالحجارة.

وبينهم رجاء وإلى جانبها عماد. رجاء ترجم الجنود بيد، وبيدها الأخرى تلوّح بغطاء الوسادة. عماد يسألها:

. لماذا التلويح بغطاء الوسادة ؟!.

وتجيب:

. الأعلام الفلسطينية التي عليه، ستفقأ عيون الجند.

وعلى مقربة منهما أبو رجاء، يلتفت حواليه، ينظر إلى زوجته، ثم يقول:

. انظري حولك، هناك كثير من العجائز، ولكن أين أم عويد، بل أين علاء ؟!.

وتجيبه:

. لا تقلق، أنا معك دائماً، لحظة ضعف، ومرّت.

ثم تقذف بقوة حجراً.

***

وعلى المصطبة، في فناء الدار، تحط العصافير، تتقافز حول المائدة التي أعدتها رجاء، ثم تنقر في الصحن والخبز.

قوس من ضياء

على الحبل المشدود في فناء الدار، أم منى تنشر الثياب، وساعداها الأسمران تدفِّئهما الشمس المطلّة من بين الغيوم الداكنة، وبوجهها الحزين تتلقى نسائم الخريف الباردة.

. هاتي الثياب من المطبخ يا منى، لأنشرها.

ومنى من حولها تضجّ وتصخب، تزعجها، تلح عليها راغبة في الخروج إلى ساحة القرية، لتلعب مع الأطفال.

وهي تحاول إشغالها عن الخروج.

ـ يا منى، كل يوم يأتي الجنود الصهاينة، أخاف عليك.

تردُّ منى، وهي تدوِّم حولها:

. لو جاؤوا يا أمي، لا تخافي.

ضفيرتاها الصغيرتان تتواثبان، تنط من ركن إلى فناء الدار إلى ركن، لا تفتر، ولا تستقر.

. اسمعي يا منى، العام القادم تذهبين إلى المدرسة، وعندئذ لا بد من أن تخرجي من البيت، كل يوم.

***

ليت الأمطار تهطل، ليت السيول تجرف كل شيء، البيوت والقرى والمعتقل والمقابر والجنود، ولتجرف حتى الحبل وما عليه من ثياب.

لا أود الخروج، ولا أريد لمنى أن تخرج.

كم أتمنى لو أظل داخل البيت، لا أغادره، لا أخرج منه أبداً.

وكم أتمنى لو تبقى منى دائماً في قلبي، بين يدي، لا تغيب عني أبداً.

ليس لي سواكِ يا منى، أنت أنا، لأجلك فقط أعيش.

لا، لن أخرج من البيت، لن تخرجي يا منى.

***

ـ لا يا أمي، سأخرج الآن، لن أنتظر للعام القادم، حتى أدخل المدرسة، الأولاد كلهم في الساحة، هشام سيشتري لي الحلوى.

ـ لا، لن تذهبي، هشام لا أريده أن.. ابقَيْ معي في البيت، لن تخرجي.

ـ ولماذا يا أمي ؟!.

***

لـن أسـمح لهـا بعـد اليـوم بـالخروج أبـداً، لا أريـد أن يشتري لها هشام أي شيء، هشام أرفضه، أرفضه.

لن يكون مثل صلاح أحد.

ولكن أمس، استوقفني هشام، وهمس لي:

ـ الحزن لهم، نحن لا نحزن على شهدائنا، نحن نبني الوطن يا أم منى.

وصمت، ثم أضاف:

. منى في قلبي.

عينـاه قويّتـان، لـم تـدمعا، وانفجـرت فـي عينـي أنـا الدموع.

أنـا أعرفـه، هـو يحـب صـديقه صـلاح، ويحـب أخـي أحمد.

ومن قبل، كان كلما زارنا أحضر معه الحلوى لمنى.

واليـوم، ازداد تعلُّقـه بهـا، كـل يـوم ترجـع إلـى البيـت، محمّلة بالحلوى، اشتراها لها هشام.

لا، منى فقدت الأب، ولن تفقد الأم.

إذا زارتنـي مـرة ثانيـة أم جميـل فسـوف أطردهـا، أنـا أعـرف، هشـام هـو الـذي أرسـلها، لتسـألني عـن رأيـي، لا تحدثيني يا أم جميل بعد اليوم عن هشام ولا عن سواه.

***

ـ لا، لا يا منى، لن تخرجي بعد اليوم، ولن يشتري لك هشام أي شيء، ولن تريه، لا، أبداً، أبداً.

منى تطرق، تحمرُّ حدقتاها، تلتوي شفتها، تفرك يداً بيد، ثم تنفجر في نشيج، والدموع تنسكب على خديها، وصدرها ينهنه.

منى تبكي، وأمها قبالتها، تحبس الدموع.

فراغ من الصمت والقهر والحزن والموت، بين منى وأمها.

وفي الخارج تسطع الشمس دافئة، والأولاد يلعبون في الساحة، يتقاذفون الكرة، أقدامهم تغوص في برك الطين في أيديهم يتحول إلى دمًى، وفوقهم تتطاير العصافير، ومن حولهم تنقر في الأرض الدجاجات.

وتفتح الأم ذراعيها، تنادي ابنتها إليها، تضمُّها إلى صدرها، تشدُّها بقوة، تقبِّلها، ثم تقول لها:

ـ هيا اخرجي يا منى، ولكن لا تأخذي أي شيء من هشام.

***

لا، لن أخرج، ولن أرمي حجراً.

أريد سلاحاً، أريد مدفعاً، لو كان بيدي مدفع لقتلت الجنود الصهاينة، ودمّرت المعتقل، ولأمُتْ بعد ذلك، ولتمت منى، ولكن لن أموت من أجل رمية حجر، من أجل رمية حجر استشهد صلاح.

وأخي كان يلوّح بالعلم فقط، تحت العلم الفلسطيني كان يقف، ولكن الرصاص مزّق صدره.

بين شهر وشهر، بين يوم ويوم، أفقد زوجي وأخي.

كل يوم كنت أخرج لرجمهم بالحجارة، ولكن بعد اليوم لا، لن أخرج.

***

وتحجب الشمس غيمة داكنة، وتلوح الثياب المنشورة على الحبل ريح باردة، ويدمدم رعد بعيد.

وتبدأ حبّات المطر بالهطول.

أم منى تجمع الثياب، وعلى ساعديها الأسمرين، وعلى وجهها الحزين، تسقط حبات المطر.

وتحمل إليها الريح صوت هتافات وجلبة.

لقد جاؤوا، لا بد من أن يأتوا كل يوم، والقرية ترجمهم، ومنى، ويلي كيف تركتها تخرج؟ أمس ذهب الرصاص بعصام، سقط أمامي، على مقربة من منى، ونحن نرجمهم،

عصـام فـي عمـر منـى، أكبـر منهـا أو أصـغر بقليـل، الرصاص لا يميِّز صغيراً من كبير.

منى، منى، منى.

***

تندفع إلى الباب، الساحة خالية، حبّات المطر تسقط في الرامات، فترسم دوائر صغيرة، لا أحد، أين الأولاد ؟!

دكان أبو القاسم، بائع الحلوى، مغلقة ؟!

تندفع إلى بيت أم سناء، تقرع الباب، هل ذهب منى إلى بيت صديقتها سنا ؟!

وتقرع الباب، تقرع، ولكن ما من جواب.

تجري نحو الطرف الغربي من القرية.

أطفـال علـى الأرض، تحـت المطـر المنهمـر رذاذاً، يكسرون الحجارة.

وفي أول الشارع رجال وشباب وشيوخ ونساء يرجمون الجنود.

***

تقف ذاهلة.

المطر يبلل وجهها، والريح الخريفية الباردة تسفعها.

هل هذه حقاً منى ؟! مشغولة إلى هذا القدر، حتى إنّها لا تراني ؟!

وترفع منى رأسها:

ـ انظري يا أمي، أنا أكسر الحجر، وأناوله لهشام.

تكاد لا تسمع ولا ترى.

ـ صدقيني يا أمي، أنا ضربت الجنود بالحجر، هشام حملني وأنا ضربتهم بالحجر، هؤلاء قتلوا أبي، هكذا أخبرني هشام.

الرعد ينفجر فوقها، والمطر ينهمر.

ـ لماذا لم تخبريني أنت يا أمي، هشام أخبرني، ولكنه قال لي: أبي لم يمت، أبي شهيد.

وتمد إليها يدها بالحجر:

ـ خذي يا أمي، تعالي أنت اضربيهم، اضربيهم مع هشام.

***

ويلمحها هشام، فيسرع إليها قائلاً:

ـ تعالي لنضربَ معاً من أجل منى، حجارتنا ستغيّر كل شيء.

***

المطر ينهمر.

والأطفال والنساء والرجال يرجمون الجنود.

وبينهم أم منى، وإلى جانبها هشام، يرجمان الجنود معاً ووراءهما منى، تزودهما بالحجر.

***

المطر ينهمر.

وتخالط قعقعة الرعد لعلعة الرصاص.

وتطل الشمس من بين الغمام.

ويتوج الرؤوس قوس من ضياء.

آخر الليل

يطفئ بقيّة سيكارته، ويمضي نحو باب الدار، يقف وراءه. ما زالوا عند الباب، وفي الزقاق. لغطهم تمازجه جلجلة أحذيتهم العسكرية، ويختلط بهدير سيارات مصفحة، تروح وتجيء.

وفي داخل الغرفة المغلقة، يعلو صراخ زوجته.

يرجع إلى موضعه عند الدرجة الأولى من الدرجات المؤدية إلى السطح.

يضع سيكارة بين شفتيه، يخرج من جيبه قداحته، يكور حولها أصابعه، ويقدحها.

يمتصّ الدخان، وهو ينظر إلى البصيص الأحمر في رأس السيكارة، ثم ينفث الدخان، وعيناه عالقتان بالنور الباهت المتسرّب من النافذة المغطّاة بملاءة.

وتهدر سيارة مصفحة، هديرها يملأ الصمت، يحس في أنفسه رائحة الوقود. ما أصغر القرية، وما أضيق حواريها وأزقتها، مصفحة تذهب، وتجيء اثنتان، ماذا يفعلون بالشباب ؟ وكيف يدخلون البيوت ؟

ينهض، يمضي إلى باب الغرفة المغلقة، وينقر الباب، فيجيئه الجواب صرخات، ونداءات ألم واستغاثة.

ويخطو ببطء نحو ابنته، يقف قبالتها، وهي قاعدة على طرف المصطبة، يتفرس في وجهها، ثم يهمس:

. اذهبي إلى النوم يا هدى.

وتجيبه بإشارة من رأسها، نافيةً رغبتها في النوم.

وتسطع في الفضاء شعلة بيضاء، تغشي الأبصار، فيرى جدران داره، وفناءها الترابي، وما فيه من حجارة صغيرة.

وتدوّي في الآفاق الصامتة أصداء رصاص تقذفه رشاشات كثيرة، من هنا وهناك، اشتعل كل شيء بالرصاص.

***

حين فتح باب الدار ودخل، ضمّ إليه زوجته وابنته، لف الأولى بيمناه، والأخرى بيسراه، شدّهما إليه بقوة، خبأت كلٌّ منهما رأسها في صدره، لفّهما بذراعيه.

لمح شحوب وجه زوجته، سألها:

. ما بك يا أم محمد؟

فأجابت:

ـ أحس بألم.

وعلى الفور ارتقى الدرج إلى السطح، وأم محمد تحذره، نادى جارته العجوز، ولم ينْزل من السطح إلا بعد أن صعدت إليه أم العز، وساعدها على النُّزول إلى داره.

قالت له زوجته:

ـ لست بحاجة إلى أحد، أمي وضعتني عام ٤٨، وهي في الحقل وحدها، قطعت حبل السرة بنفسها، قطعته بحجر، ثم لفتني بثوبها، ورجعت إلى البيت ماشية.

ورد عليها:

ـ لا، لا بد من وجود أحد إلى جانبك، أم العز مثل أمك، ولو كان في الإمكان لحفرت في الأرض نفقاً، وذهبت إلى أم الخير، لإحضارها.

ويشتد الصراخ.

هل فزِعَتْ من دخول الجند إلى الدار، وتفتيشها حجراً حجراً، فجاءها المخاض قبل الأوان ؟!

هل هو إجهاض ؟!

هل أرهقها صوت الرصاص، فأجهضت؟

أجهضت حين علمت باستشهاد أخيها في اجتياح لبنان عام ٨٢، هو الوحيد الذي بقي من إخوتها، أجهضت وهي في الشهر الثامن.

وقبل عامين، في المخاض، مات الوليد.

اقتحم الجنود المستشفى، ودخلوا إلى غرفة العمليات.

واليوم ؟!

أين أنت يا أم الخير ؟! أي طائر أو عفريت يمكن أن يحملك من بيتك إلى بيت أم محمد ؟!

زقاق أو زقاقان، حارة أو حارتان، والقرية كلها عشرة بيوت، ولكن ما من طريق إليك يا أم الخير.

عند كل باب جندي، أو جنديان، وإذا أخبرتهم أن زوجتي في المخاض، وأني ذاهب لإحضار القابلة، زاد العناد.

***

عشر مصفّحات حاصرت القرية، مع الغروب.

وهو قادم على الطريق الرئيسية، ماشياً، يحمل على كتفه فأسه، رأى المصفّحات تحاصر القرية، فكّر في الرجوع والبقاء في الحقل، ولكن..

كيف يترك أم محمد وابنته وحدهما ؟!

وتقدم من الجند مرفوع الهامة، على كتفه فأسه.

صادروا الفأس، وقالوا:

. هي سلاح.

. ليأخذوها، وليحفروا بها قبرهم.

مد إليهم يديه، وقال:

. يداي مشققتان، من العمل في الحقل، انظروا، وهذه الفأس على كتفي، وأنا كهل عجوز.

ولكن...

ست ساعات وهو واقف، وجهه إلى الجدار، ويداه مرفوعتان، إلى أعلى ن وعلى يمينه أربعة أو خمسة، وعلى شماله أكثر من عشرة، ولا يستطيع الالتفات، أو الهمس.

هل يصرعهم الرصاص فيهوون، متخبطين بدمائهم، أم يساقون إلى المعتقل ؟! لا يعرف، هكذا أمضى الساعات الست، من المغرب إلى منتصف الليل.

بعد عشر ساعات من العمل في الحقل، يقف ست ساعات.

لم يقلق، ولم يضطرب، ولكنه قلق على زوجته، ماذا ستفعل ؟! كيف ستتصرف ؟! لا بد من أن يدخلوا البيت،

ولا بـد مـن أن يفتِّشـوه، ولا بـد مـن أن يسـتجوبوا زوجتـه، وابنته.

هدى، دون الثامنة.

ولكـن لا بـد مـن اسـتجوابها، هـي اعتـادت ذلـك، لا تخاف، ولكنه قلق، قلق.

أمضـى الضـحى مـع الشـباب فـي رجـم جنـود العـدو، سـاعة أو ثلاثـة أربـاع السـاعة، وهـم يرجمـون الجنـود، سـقط ثلاثــة شــباب، وجــرح عشــرة، حمــل أحــدهم بنفســه إلــى المستشفى.

ومن المستشفى توجّه إلى الحقل، أرسل مع أخيه خبراً إلى زوجته يطمئنها، ويؤكد لها أنه لن يرجع من الحقل إلا مع الغروب.

انتهـى الاشـتباك بإلقـاء زجاجـة حارقـة علـى إحـدى المصفحات، فاشتعلت فيها النار.

توقع الحصار.

ولكنه لم يتوقع المخاض.

هل هو حقاً مخاض ؟! أم هو إجهاض ؟!

أم محمـد لا تخـاف، هـو يعـرف ذلـك، ولـولا توقعهـا الولادة بين عشية وضحاها لشاركت معه في رجم العدو،

كل يوم كانت تخرج معه إلى رجمهم، ولكنها منذ يومين فقط لم تخرج، كانت تحس بألم شديد في ظهرها، أحست أن بطنها قد هبطت إلى أسفل، زارت أم الخير، فأكّدت لها أن الولادة قريبة.

هي لا تخاف، ولو اقتحم الدار ألف جندي، ولكن..

***

ويعلو في داخل الغرفة صراخ حاد.

يرمي بقية السيكارة، يقذفها بعيداً، وينهض.

تسأله ابنته:

. أبي، لماذا الولادة صعبة ؟!.

يمضي إلى باب الغرفة المغلقة، من غير أن يجيب، يقف، الصراخ يزلزل جسده، يخترقه.

محمد، محمد، أبو محمد، منذ عشرين عاماً وأنا أنادى أبو محمد، تزوجتها بعد النكسة، عام ٦٧، تأخرت في الإنجاب، ثم أجهضت وأجهضت، وجاءت هدى، ثم أجهضت مرتين، وهي اليوم في الأربعين.

ما كان ذنبك يا أم محمد، ولا ذنبي أنا.

***

وتدوي القنابل، تملأ فضاء آخر الليل، وتنهال دفقات الرصاص تقذفها مدافع مجنونة، ويهتز باب الدار تحت خبطة عابثة، وتتلاحق في الزقاق جلجلات أحذية عسكرية، تخالطها صيحات بالعبرية.

وتصيح هدى:

. أبي.

وتلقي بنفسها بين يديه، فيضمُّها إليه، وهو يقول:

. لا تخافي، هذه عادتهم حين ينسحبون.

***

وينفجر في داخل الغرفة المغلقة صراخ حاد، تعقبه استغاثة ألم مر، ثم يخيّم صمت شامل.

صمت في الداخل والخارج.

صمت في السماء والأرض.

ويملأ الغرفة والدار والوطن والكون، صوت جديد.

***

ويفتح الباب المغلق، وتطل أم العز بالبشرى:

. مبارك يا أبو محمد، جاء محمد.

ويسأل بلهفة:

. والأم ؟!.

. بألف خير.

***

ويدخل أبو محمد على زوجته.

بسمة دافئة تطرد عن الوجه الشحوب المقدس، وإلى جانبها ينام الطفل.

يدنو منها، يحنو عليها، يقبّلها في جبينها، ويهمس:

. مبارك يا أم محمد، تعبتِ كثيراً.

وبدهشة تسأل هدى أمّها:

. كل هذا الدم ضروري للولادة، يا أمي ؟!.

وهي تشير إلى زاوية الغرفة، حيث خرقٌ كثيرة مبللة بالدم.

وتهز الأمر رأسها بالإيجاب.

***

وترفع أم العز الملاءة عن النافذة، فيدخل نور فجر جديد.

المحتوى

الصفحة

١- لنا باقي الأيام	٥
٢- أبو خالد لا يستلم ابنه إلا جثة	١١
٣- حجارة أرضنا	٢١
٤- في داخل سيارة عسكرية	٣٣
٥- فتاة من واشنطن	٤٢
٦- رسالة	٥٤
٧- الأطفال أخيراً	٥٩
٨- أعلام صغيرة	٦٩
٩- قوس من ضياء	٧٩
١٠- آخر الليل	٨٩

كتبت قصص المجموعة
بين آذار وتشرين الثاني
١٩٨٨